المصطفى الزراد

عتبة الفناء

الجزء الأول

رواية

اسم الكتاب	**: عتبة الفناء**
اسم الكاتب	**: المصطفى الزراد**
الصنف	**: رواية**
الطبعة	**: الأولـى 2022**
رقم الإيداع القانوني	**: 2020MO3971**
ردمك	**: 978-9920-40-443-3**

تصفيف وتصميم:

دار بصمة لصناعة الكتاب

فايسبوك: دار بصمة لصناعة الكتاب

Mobile :06 61 48 24 04 Fixe :0535385317

E-mail: darbassma@gmail.com

مطبعة ووراقة بلال ش. م.م

100، **زنقة المدينة المنورة، محج سيدي سليمان، حي الأمل، النرجس، فاس**

الهاتف: 55 70 68 61 06 **الفاكس الثابت** 03 86 61 35 05

E-mail :imp.bilal@gmail.com

القصة الجيدة هي تلك التي تم بذل الجهد لجعلها تنقل حقيقة ما. وهي توجه هذه الحقيقة للجمهور الواسع وليس لكاتبها فقط. وهكذا يكون لذاكرة الفرد، وقد تم تغليفها في سيرة ذاتية أو في رواية على شكل سيرة ذاتية معنى عام وشامل.

ميري ورنوك

الفصل الأول

منذ طفولتي وجمال الطبيعة الربيعي في القرية يسحرني، وككل ربيع تبعثرني لحظات الحنين للتسلية بجمال الطبيعة. لا شيء غير الطبيعة يداعب ذكريات الطفولة ويبلل صحراء الأيام التي نثرت رمالها لأهوال الحياة.

في يوم دافئ من أيام الربيع، إستيقظت باكرا كعادتي. إستنشقت الصباح المنفتح، وخرجت قاصدا الجبل. كانت الأرض مكسوة بالأخضر وبألوان الحياة، تشدني إليها وتفتح لي شهية المسير على مهل موزعا نظراتي على أغصان الأشجار التي تزينها أصوات الطيور وكأنني لحظتها طائر أبحث عن عش أخبئ فيه ذاتي، وكم كنت متلهفا لأهدي نفسي هذا الشعور المنشرح الذي يهدي قلبي نبض الحياة.

كانت الشمس تداعب جسمي وأنا أعبر الممر الضيق الذي يخترق الغابة المجاورة للقرية. ووجهي يرسم بداخلي لون الحياة، وكأن الكون يعزف على أوتار الزهور فأكون أنا سر الصوت المنبعث بين وريقات الأشجار المتدلية على الممر وترشق جسمي ترحيبا بقدومي، وبعضها يقف في طريقي وأزيحه بيدي دون التفكير بأن ذلك رفض وجودي من المكان لي.

خبأ الربيع مفاتيح القمر، حتى لا تسقط جدران النهار فارغة. وجردتني اللحظة من كل أحرف الوجود، ولم تعد الطبيعة تستهويني.

كسر الملل كل صوت بداخلي ينطق بالحياة، ومع ذلك أواصل البحث عن المعنى، لم يعد يستهويني أي شيء. أخاف أن أتشبث بالبحر ويبلعني كما تبلع السمكة الطعم فتموت.

وأخاف أن أبني الحلم من الرمال وتنهار كما تنهار أوراق الخريف. وحتى الجبل لم يعد يستهويني حجرة صماء فيها الخوف، وفيها الرجاء، وفيها العطاء، ما هذا الغباء .

في الجبل بيت قديم من الأحجار والقصدير يقاوم الوجود. هذا البيت مقدس لسكان القرية والنواحي بل ولمختلف المناطق اعتقادا منهم أن به ضريح للولي الصالح مولاي عبد القادر. أنا أعتبره مجرد جبل، وهذا البيت المقدس بالنسبة لي مجرد أحجار صماء لا تنفع الزائرين في شيء واللاهثين وراء بركة مزعومة .

بينما أنا أتيه ببصري من رأس الجبل الذي يسمح لي باكتشاف جمالية الطبيعة وسحرها، سمعت طرقات أقدام تقترب مني، وأصوات يتردد صداها بين أغصان الأشجار. تلفتت نحوهم فإذا بهم جماعة من الرجال والنساء تقصد الأمل المزعوم. إبتعدت قليلا وإتخذت لنفسي مكانا يسمح لي برؤية كل شيء، شرع الزوار في تقبيل الأحجار الصماء وأصواتهم تعلو مستغيثة بمولاي عبد القادر. تحولت هذه الأحجار إلى رب يمنح الرزق، وإلى عيادة طبية تعالج الأمراض النفسية والعقم وغيرها ولكنها ترسخ الجهل الجاثم على القلوب.

حاولت فعل شيء لكني تراجعت بعدما عرفت أن حديثي معهم لن يغير شيء، خصوصا عندما رأيت الحماس المتغلغل في قلوبهم وشدة تعلقهم بالوهم والخرافة .

إنصرفت والغضب يملأ قلبي كان النهار قد دخل في النصف الثاني

وحرارة الشمس في ارتفاع. بدأ العطش يتسلل إلي قصدت النهر الذي ينفجر منه ماء عذب من الصخرة الكبيرة لأروي عروقي العطشى.

فجأة داهم سمعي صوت غريب تجاهلته للمرة الأولى ولم أبالي، إعتبرت الأمر مجرد أصوات حيوانات، غير أن الصوت بدا مسموعا بشكل جيد لما إقتربت من المكان، ولم يعد لي أدنى شك عندها أنه صوت إنسان يطلب المساعدة. تلمست جهة الصراخ وتتبعت خيوطه بأذني فتبين أنه صوت فتاة في مقتبل العمر عالقة بالنهر. بسرعة كبيرة إقتربت منها، وبسرعة أيضا أدركت أن الخوف قد بلغ منها مبلغا عظيما. ودون تفكير تحمست لتقديم المساعدة فالبدوي مثلي لا يبالي في مثل هذه المواقف بقدر ما يأخذه الحماس بكل عفوية وبشكل فطري بما تمليه عليه طبيعته البدوية.

حملقت في وجهي بدهشة وأرسلت نظراتها الخاطفة تخترق عيوني وقالت: من أنت؟

إبتسمت وقلت لها لا يهم من أكون. المهم هو مساعدتك الآن.

مدت يدها إلي وجذبتها بكل قوة حتى كاد جسمي يلتصق بجسمها.

أحسست أني أملك الوجود كله وهي مثل فراشة مبللة بمياه النهر ترتعد خوفا. في هذه اللحظة كان دماغي يلتقط صورة لها، وكلما وقعت عيني عليها ينتابني شعور خاص، أحس أنها نجحت في أن تشيد لنفسها مكانا في قلبي.

فتاة مثل فراشة تلامس رحيق الزهور مرمية في النهر كذبيحة أخطأ السكين وريدها وتئن من الجرح. لا يهمني من تكون هذه الفتاة. ولكن عل مساعدتها أمسكت يداي بكل قوة وعينيها مسامرة في عيني وشعرها المبلل يرسم على وجهها علامة الفرح .

- إبتسمت وقالت : إسمي شامة شكرا لك أنا مدينة لك بما فعلته لأجلي.
- إبتسمت بدوري وقلت لها أنا مدين للنهر وللصخرة التي عثرت بها ورمتك إلي.

كانت رجلها اليمنى مصابة وكادت تنكسر عندما إصطدمت بالصخرة المحاذية للنهر وأوقعتها وسط ماء النهر.

وقبل أن تنصرف أخبرتني أنها غريبة عن القرية فقد كانت تنوي إكتشافها.

عندما إنصرفت أيقظت عواطفي وكأني لم أرى فتاة قبلها ولم تلامس يدي يد فتاة، أحسست بشيء غريب يغمز وجداني وبدأت التموجات ترتسم بمخيلتي وصورتها تخترق دماغي. فهل معنى هذا أن الصراخ كان يناديني لشيء آخر؟.

كان اليوم أشبه بصدفة حظ، شامة كانت تتجول في خلوتها على جنبات النهر، وأنا كنت أقف على رأس الجبل ومنحتني الشمس فرصة إقتحام خلوة شامة. وكانت عثرتها بمثابة حظ رمى به القدر إلى خلوة قلبي الذي تبلل بقطرات العشق وأنا أهمس بجسدها المبلل.

لم تكن رغبتي وأنا أعبر المسافات من الجبل إلى النهر الإرتواء من

العشق فقد كانت منتهى رغبتي الإرتواء من ماء النهر. وكم كنت أسارع الخطى لأبلل لساني بقطرات الماء. ولكن نافذة العشق كانت مفتوحة وبللت قلبي وغمزت شعيرات جسمي وأيقظتني من فراغ مفزع إلى ركوب أسئلة لا بداية ولا نهاية لها سوى إنتظار شمس المساء أين ستحط الرحال. هل على ليلة صماء مظلمة بقواميس مقفلة يطول معها شقائي ولا صباح يطل في الأفق أم على نغمات العشق المنفتح يوقظ غرة الليلة من سهرها ويقذف بها إلى نسائم الفجر تفطر قلبي ريحان الوجود؟.

اللحظة الجميلة تنزل بك من فوق الجبل إلى قاع النهر. و يا له من صعود وهبوط غريب. ففي الهبوط صعود وفي العثرة أسر للقلب. وحدها اللحظة من تستوعب حجم التأويل الذي رسم خيوطه في دماغي لا شيء يزحمه سوى صورة شامة.

فقد كنت أعيش على جبل الفراغ والوحدة وها هو الجبل يستريح مني خطوة خطوة ويرميني إلى نهر العشق، كنت أمشي من فوق الجبل إلى النهر هبوطا ولكن الحظ كلما كنت أبتعد عن فوق كان يزداد صعودا ويقربني إلى الأعلى حيث يحلق العشق. فكنت أتجه إلى الأعلى وكانت أسهم الحظ ترتفع كلما توغلت قدماي إلى أسفل.

ومنذ ما أصابت الصرخة أذني وعيني لا ترى غيرها، هي الإستثناء. شعرها الأسود كزهرة تحركها الريح ذات اليمين وذات الشمال تعبث بقلبي وتحركه ذات العشق وذات الهيام .

كنت أغوص داخل عينيها السوداويين. ورموشها ترشق شرايين

روحي، منذ ما رأيتها أول مرة ملقاة وسط بركة ماء النهر تصرخ أنقذني وأخبرتني أنها حلت بالقرية حديثا قادمة من مكناس وصورتها تغزو دماغي، كلما رمقتها بعيني ينتابني شعور خاص، بأن اللحظة فتحت نوافذ العشق وهي مثل فراشة قذفها القدر لترفرف فوق حجري.

كانت تبحث عن فضول في فناء الهوى، جلست بجانبي وهي تراقب عيني بخجل كبير، وبالطبع كان عليها أن تجدد الشكر لي مرة ثانية لأحس بالفخر أمامها كمحارب في قبيلة اليتامى.

قالت وهي مبتسمة: أبحث عن خيط يوصلني إلى بر الأمان.

أحسست بالراحة وأنا أستعد للبوح وأخبرتها هي الخيط وأنا الماسك بالفراغ لو سلمتني الخيط لكان الأمان ساجدا بالمكان. لم نكمل الحديث على عتبة الباب تنتظرها أختيها وعليها أن تتظاهر بالهدوء.

مشت بجانبهما ولم أعرف بماذا أخبرتهم، إستبعدت أن تخبرهم عن نظراتي وخجلي وخمنت أنها ستخبرهم بأنني أمزح معها على مشارف الصدفة ليس إلا ، ولكن قبل أن أتيه في التفكير عادت إلي مجددا .

كان شعورا غامرا بوجودها الحميمي، حدث شيء غريب، قررت الاعتراف لها. كان يوما رائعا، الشمس تتوسط كبد السماء، والمكان فارغ من المارة إلا من جمال شامة الذي يؤنس روحي. وهل يليق جمالها بحماقتي؟. هدؤها ونعومتها سحر المكان كله، وأيقظ خوالج العشق التي بدأت تفتت شرايين جسمي. أحسست أن الشمس تطرب لوجودها ولكني خجول. خجول تماما كيف سأعترف لها؟.

ومع ذلك قررت المغامرة، أعشق جنون جمالها وسحرها، هي رقيقة كالياسمين، قلت لها أحبك وهربت بعيدا. كان لا بد لي من الهروب. إنصرفت دون أن تقول شيء، تعقبتها حتى اختفت ورجعت إلى الخلف مذعورا. وبعد قليل سمعت طرقات قدميها تتجه نحوي وبدأ قلبي يخفق. ولم أجرأ على الكلام، إكتفيت بالصمت وفجأة قالت:

- ماذا كنت تقصد قبل قليل بكلامك؟.

- وأنا أختلس النظر إليها وقدماي ترتعش، لصق لساني في فمي ولم تسعفني اللحظة على البوح، خمنت أن الوقت مناسب جدا. ولكن هيهات اللحظة المناسبة نصاب بالخرف، تملكت نفسي وقلت لها أحس بالضعف، أنا ضعيف جدا أمامك.

- قالت وهي مازحة: سبحان الله هذه الجثة كلها مجرد ضعف يسير في بساط الأرض .

- أعتقد أنك فهمت قصدي.

- قصدك، ماذا تقصد؟

- لا شيء، فقط نيتي صادقة.

- وما شأني أنا بنيتك؟

- النية هي كل شيء، دائما نسأل الله أن نلتقي مع من هو أفضل منا؟.

- استغربت وقالت : بماذا عرفت أنني أحسن منك؟ .

- قلت في نفسي اللهم إرزقني صبرا جميلا، قبل قليل جثة تسير في بساط

الأرض. والآن أحسن مني. إبتسمت وقلت لها طبعا أحسن مني بكثير. أنت أحسن ما في هذا الكون، أنت عبقا فريدا. أنت جمال الدنيا...

أحست بفرح يداعب وجدانها وهي تلمس شعرها وتفركه قالت: أنت مجرد مجهول، غامض. كيف أثق بك؟ .

أنا هنا من أجل أن يصبح المجهول معلوما، ويتحول الغموض إلى الوضوح بكل معاني الدقة للوضوح. أصلا أنا واضح كرمانة الربيع.

ومتى كان الرمان واضحا؟. قالتها باستغراب.

أجبتها مبتسما: ومتى كان الرمان في الربيع؟. أليس في الربيع زهرات الرمان واضحة ومتفتحة بمنتهى الوضوح والنقاء تبرح فيه النحل ملاذا لتسقينا عسلا طيبا .

سأحكي لك كل شيء بالتفصيل الممل، ولن أترك بياضات في ذهنك ترهقك بأسئلتها. أو تلجئين إلى غيري، سأرمي كل الثقل دفعة واحدة... ولكن لا تنسى أنك جميلة.

ابتسمت وقالت إذا كنت أنا جميلة فأنت الوحش؟.

ضحكت بصوت عال حتى إنتبه الناس من حولي. وقلت لها نعم أنا الوحش المسحور منذ زمان وسم السحر يسري في عروقي ومنذ ما بللت عيناك ثقب دماغي وأنا أنتظر الخلاص. وأنت الخلاص...

قبل أن تنصرف قالت شبه يائسة لا تصدق القصة: جميلة والوحش مجرد خيال. إعترضت طريقها وقلت لها مهما يكن أنت جميلة وأنا الوحش

وهذه ورود الحياة نسقيها بحبنا وعشقنا. إذا كان هذا مجرد خيال دعني أعيش الخيال وإذا كان هذا واقع دعنا نرسم لوحة حبنا على هذه الأرض قبل أن يفنى الوجود؟.

ولكن قلت لك أنت مجرد مجهول قالتها وانصرفت...

قلت في نفسي لا شك أنها متلهفة لمعرفة كل شيء، لا بد أنها تخمن أي قصة من غرائب وعجائب المعمور ستقذف إلى مسامعها، فقد كانت تنصت باهتمام مبالغ فيه وأنا أحكي قصتي قلت لها ترين شاب في الرابعة والعشرين من عمره حاصل على الإجازة في التاريخ. قرأت في الجامعة تاريخ مكتوب وعلمتني الحياة تاريخ آخر لم يسمح له بالتدوين. بداخلي تاريخين متصارعين ومتناقضين. ولكن لا أحدهما أثار شغفي الآن . لماذا؟ .

لأن الجغرافيا أرغمتني على إكتشاف خرائط تفكيرك وأحلامك، قامت مندهشة من مكانها ومن أخبرك أنني بحاجة إلى كل هذا العناء؟.

قدرنا أن نلتقي مهما حاولت الهروب. إفهمي هذا جيدا. هذه ليست مجرد مصادفة أو مفاجئة. هذه حقيقة وجودية، وعلينا أن نحيا وجودنا بكيفية مختلفة، والأصل هو أن نبقى معا.

شعرت بنوع من الفلسفة في كلامك، أعترف لك لم أفهم شيء في كلامك .

لا تفهمي المهم هو أن نبقى معا، هذه مفهومة وواضحة. قبل أن تنصرف

قالت دعني أفكر في الموضوع.

كنت أحسب أن زمن الطيش قد إنتهى، وأن الأيام الفارغة سترحل على الأقل يمكن فتح الباب للحلم. هذا أفضل من الفراغ، الإنسان لا يستطيع فعل شيء دون حلم. لا بد من محرك داخلي والآن هناك أكثر من مبرر لينفجر داخلي حلما وأملا. ولكن كنت خائفا من عدم الرد، أو يكون ردها حارقا وقاتلا، ومهما يكن أنا مستعد لكل شيء .

وفي اليوم الموالي أطلت علي مع إشراقة الصباح، كانت فاتنة وجذابة وساحرة وفوق كل هذا مبتسمة، أحسست بالفرح يغمرني. كما يغمر أي رجل سعيد .

ودون أن أنبس ببنت شفة، إكتفيت بالصمت ومراقبة شفتيها خمنت في مد يدي إليها ولم أتجرأ. إنقبض قلبي مع أول كلمة مفتولة في حنجرتها تستعد للخروج وأنا أراقب بشغف كبير.

قالت : فكرت كثيرا في كل شيء، الليل كله وأنا أفكر، لم أفهم الكثير من الأشياء.

ها أنا من أجل التوضيح. حقا نسيت البارحة الكثير من الأمور. لم أخبرك أنني درست التاريخ والحضارة. ولكنني تخليت عن التاريخ ، تكفيني الحضارة.

لماذا؟.

لأنك أنت الحضارة وشعلتها. إجتمعت فيك كل حضارات الإنسانية.

أما المسألة الثانية هي الوضوح فقد حدثتك عن نفسي بمنتهى الوضوح. ونسيت أن أخبرك أن هذا الأمر فيه الكثير من الغموض.

قالت مندهشة : لم أفهم. أنا إنسانة بسيطة جدا. بسيطة أكثر مما تتصور. وأنا أحدق في عينيها أجبتها : هذا هو بيت القصيد. تلك البساطة المفعمة بالوضوح أكثر تعقيدا مما نتصور. سأشرح لك كيف. انظري إلى هذه الشجرة .

نعم وماذا بعد هي شجرة.

أعرف هي شجرة وفوق كل هذا واضحة تماما. ولكن تتغير حسب فصول السنة. ونفس الشيء جغرافية الأرض تتأثر بالمناخ وبكثير من العوامل الأخرى وقد لا نجد تفسيرا لهذا .

كانت قد دخلت في دهشة غريبة وصورة وجهها تخبرني بذلك. إصفر وجهها وفكرت أن هذا أحرجها كثيرا. فقد قالت لي وهي مرتبكة :

هل تقصد أن المرأة متقلبة ومراوغة ؟ .

ربما ولكن ليست كل إمرأة بالضرورة كذلك.

وأنا كيف أبدوا لك؟ .

أنت. بمنتهى الصراحة سابق لأوانه الحكم. ولكني قصدت بالوضوح هو أن الكثير منا يريد ويخاف من الشيء الذي يريده. أي ليس هناك وضوح تام في آخر المطاف. نريد الكثير من الأشياء ولكن نريد أن لا يرانا الناس.

والغموض الذي أقصده هو ما بين السر والعلن. فما نفعله سرا، ليس هو ما نعلنه جهرا .

وأنت ما قصتك؟.

كان سؤالي مباغتا، ارتبكت وقالت متلعثمة. قصتي غريبة، من أين سأبدأ؟.

قلت لها : لا يهم البداية، المهم هو الوضوح وتجنب الغموض.

تنهدت وقالت : قصتي غريبة، كنا نعيش في مكناس كنت أجد بعض الوقت للخروج قبل أن يتقاعد أبي. أبي جندي متقاعد، صعب المراس، له منطقه وفهمه للحياة، فلسفة الحوار لم يصادفها في حياته .

بدأت الأمور تختلط علي ... ماذا يعني أن أرجع إلى الوراء، يشدني الحنين إلى بعض اللحظات، وتزعجني بعض المواقف. إحساس يخيفني ويشعرني بالوحدة. أعطيني يدك لأحس بالأمان، لم أجرأ أن أفعل في البداية كنت أخمن أنها تمزح، ولكنها سألتني بطريقة غريبة :

ما الذي تشعر به وأنت مع أنثى؟.

إحمر وجهي خجلا وأجبتها ينطفئ الحزن بداخلي، ويدفعني الموقف للاعتراف بأن المسافة والحواجز تسحقها الكلمات البريئة .

أمسكت يدي واسترسلت قائلة : لا أنكر أنني تعرفت على كثير من الشباب عندما كنت في مكناس، وحتى عندما عدت للقرية. ولكنها مصادفات حياة فقط والذي لم أفهمه حتى الآن لماذا يحيط بك جيش من المعجبين تخلط

لك الأوراق وعندما تبحث عن ورقة صادقة يختفي كل شيء.

قل أني كاذبة،

لم أجبها واكتفيت بابتسامة. تنهدت من أعماقها وكأن شيء ما يخنقها أو شيء ما حرك قلبها بعنف، كنت ألاحظ تغير واضح في ملامح وجهها وقالت:

كنت متعلقة جدا بابن عمتي، كان تعلقا طفوليا كنت أبحث عن ألف تبرير لأزور عمتي ربما أصادفه وأسرق النظر إليه. لكني كنت أصادف أخيه الأصغر الذي كان يتحرش بي دائما، مثل ابن عمي الذي كان يهددني. عشت لحظات عصيبة.

كان ابن عمي يتسلل في الليل بين البيوت مثل فأر هائج، وكنت مجبرة للاستسلام له خوفا من بطشه. كان شابا يافعا بينما أنا كنت فتاة صغيرة، المشهد مقزز جدا، أحتفظ به رغم مرارته. كانت لحظات عصيبة جدا، دفعتني للبحث عن الأمان بأي ثمن. وهذا الغلط الكبير الذي تفعله الفتاة في طيشها خصوصا عندما يكون الفراغ العاطفي كبيرا. عم صمت قليل قبل أن تواصل حديثها بحسرة عميقة والدموع تغازل عينيها. قالت منفعلة وهي تمعن النظر إلي : أبي لم يعانقني ولو لحظة واحدة، ولم يحتضني بين ذراعيه، كانت قساوته تفزعني. حتى كلمة إبنتي كان صعبا عليه قولها أما الحنان والدفء أصبح في عقد المستحيل. كل هذا الفراغ كان يرميني إلى المجهول ولم يكن أحد ليضع بوصلة في طريقي تحدد لي بشائر الوجود.

تعرفت على جواد من بني ملال قضينا وقتا رائعا إلى جانب شباب آخرين، ولكن عبد الوهاب الشاب الوسيم من مدينة فاس خطف قلبي وسرق عقلي، كان يأتي من مدينة فاس من أجلي، كانت قصة رائعة وجميلة تخليت عن كثير من المعجبين حتى أن أحد القضاة كان يرغب الزواج بي. ولكن عبد الوهاب احتجز كل شيء.

قاطعت حديثها بسؤالي: وأين ذهب عبد الوهاب؟.

وهي تفرك أصابعها بكل عصبية ردت بقولها : لم أراه منذ مدة، سافر إلى مدينة طنجة وانقطعت عني أخباره.

حاولت أن أتظاهر بالهدوء، فقد اكتسحني قلق وارتياب، أيعقل هذا؟. كيف يحملني البوح إلى مزاحمة الوضوح؟.

عتمة قاتمة تطل من الماضي، لم أرغب الدخول في صراع الحب والكراهية، وأن يتوزع تفكيري بين الحاضر أريد أن أتلمس خطاه، وبين ماض لست مسؤول عنه. ولكن اللامبالاة ترجف القلب في لحظات عصيبة. وكثير من الأشخاص ينهزمون أمام الماضي ولا يستطيعون تذويب الأقنعة الواهمة. يتهافتون إليها بكل شوق ولهفة:

الحب ليس هواية ولا تسلية. لا نستطيع توقع النهاية، ومع ذلك تغمرنا البداية بالجلوس ساعات طوال أمام المرآة لكبح التعلق الطفولي باللحظة .

نبهتها إلى أن كثرة البوح ليس بالضرورة وضوحا. وبماذا يفدني أن تقتطع أجزاء من الماضي وترميها إلي. لست في حاجة إلى كل هذا الزخم من

الغموض .

أحست بحرج شديد، وحاولت أن تخرج نفسها من ورطتها بقولها : لا تسيء الفهم، أنا لست مثلهم...

قاطعتها بحزم: لا تعد إلى ترديد هذه الأسطوانة مرة أخرى، أنا لم أطلب منك التفنن في رسم صورة الماضي كما خطتها أحداث الطيش، كل ذلك لا يعنيني ولا يفدني في شيء الآن. فالنبش في العلبة السوداء للماضي ليست مهمتي ولا من باب الوضوح المطلوب.

هل تعرف أنك أغرقتني غموضا وتلك الصورة الجميلة التي رسمتها عنك ذاكرتي لفها الآن الكثير من الضباب والسحاب ؟.

الغلط الذي يفعله الكثير هو رمي الماضي دفعة واحدة إلى قلب الحاضر ولا يستطيع التقدم خطوة لأن الماضي يجره جرا، وهذا الزخم من التشويش على اللحظة لا يفيد في شيء.

كانت مرتبكة وغارقة في التيه، احمر وجهها خجلا وهي تقول : لا تفهمني غلط ؟.

زاد انفعالي وقلت لها الغلط هو البوح الطائش و الغموض بعينه هو عندما نقسم الناس إلى شياطين وملائكة ...

ها أنت بكل ما اعترفت به لا ترى عيبا في ذلك ، وربما لك تبريراتك الخاصة. ولكن كيف سمحت لك نفسك برمي الآخرين إلى مستنقع الوساخة؟.

الغموض هو أن يقول كل واحد منا أنا نقي، وغيري متسخ. علينا أن نكف عن اللعب الوسخ. الوسخ في أذهاننا في تصوراتنا ونعكس ذلك على سلوك الناس .

ممارسة الجنس في كل مكان، الرشوة ترقص في كل الطرقات، الفساد يلون كل اللحظات. كل هذه السلوكيات من يفعلها؟. الكل يرفض، ويمقت، ويسب، ويغضب ... من الفاعل؟. الكل يريد ... الكل يرفض ... السلوك موجود، ومرغوب ومرفوض... هذا هو الغموض .

ببساطة على طول المسافة نملك تقرير مصير الناس بشكل عشوائي، ونرميهم بكل المساوئ، إلا أنفسنا الطاهرة المليئة بالإيمان، يكبر الوهم بداخلنا أننا ملائكة نواجه قدرنا في زحمة الشياطين. لا وقت لنا للتأمل بأن كل نفس لها ما لها وعليها ما عليها ...

دعنا من كل هذا لا يهمني ما فات، أنا متحمس لما هو آت.

قالت شبه حزينة، لا تتحمس كثيرا، قلت لك أبي لا منطق له، لا يقبل أن يزوجني الآن. على الأقل حتى أرد له دينه. هو دائما يصرخ في وجهي : حرقت حياتي في الصحراء لأصرف عليك. المدرسة، المأكل، الملبس ... وفي الأخير تتزوجي .

عم صمت قليل، وقلت لها معه الحق، ومهما فعلت لن ترد له دينه، هو أبيك. وفضله عليك كثير. مهما كان قاسيا، ومهما كان سلبيا، عليك أن تتفهمي وضعه، قد ترتكبين حماقة تندمي عليها ولا ينفعك ندم.

الأب يبقى أب ولا نختاره، قدرك أن يكون ذاك الشخص هو أبيك. ليست المشكلة في ذلك. حاولي قدر المستطاع ارضاءه، لا يهمك ما يقدم لك، بل فكري ما قد تقدمه له أنت وهو المهم، دين الوالدين ثقيل ومهما فعلنا لن نرد إلا القليل. ومهما أخطأ، فهذا هو اعتقاده دائما يعتقد أنه يفكر في مصلحتك وليس إذايتك.

هو اختلاف على مستوى الفهم فقط، وإن كان هو لم يفهم ويتفهم احتياجاتك كأنثى وكبنت وغيرها. اغفري له بحق الأبوة. واصبري صبرا جميلا. والله معك لن يخيب ظنك به.

اكتفت شامة بالصمت، بينما أنا أحسست لحظتها بيأس، شعرت بأنني أخسرها، ومع ذلك لم أفكر في التخلي عنها ...

فكرت في الأمر كثيرا، حلمي يتلون بالسواد والرماد. أخبرتها أنني سأجد الحل المناسب في الوقت المناسب وانصرفت بعدما شعرت بالضيق.

قلت في نفسي منذ الآن لن أراها، يصعب أن أتحدث عن الفراق في البداية، تموجات الرحيل ترتسم أمام عيني كشبح مخيف تارة، والخلاص تارة أخرى.

لا أستطيع أن أحفر إسمي في التاريخ، دون مغامرة. وبدأت فكرت الهجرة تكبر بداخلي، وتقطف حبات رمل الشاطئ وتقذفه إلى وجهي، لم أعد أرى سوى البحر يستقبلني.

بدأ الحلم يصل إلى سقف السماء، تخيلت نفسي أمشي بشوارع

أوربا، أمشي واقفا، ثابت الخطوة، قريبا سأكون هناك، وعندما أرجع لن يستطيع أهل القرية النوم، جاء أحمد من أوربا، سيارة فارهة، وكثير من الهدايا للعائلة والأصدقاء .

أحسست بالراحة، ربما تفاءلت أكثر من المعقول، والإنسان مثلي هل يفرح أم يجن؟. ثم ماذا يفدني الجنون الآن؟. أنا طاقة حالمة مفعمة بالأمل وشامة تنهش عظامي وبقايا رموش عينيها كحروف ساقطة على جفوني.

تركت الحلم ورائي ورحت أتلمس خطى شامة لأبلغها قرار الرحيل، وكلي حماس وسعادة.

في مفترق الطرق على مقربة من منزل شامة، لمحتها وهي تداعب حملا صغيرا حديث العهد بالولادة، نظرت إليها ولما رأيت البسمة تحيط بوجهها قلت هذا هو الوقت المناسب. رميت حجرة صغيرة على الشجرة المجاورة لأثير انتباهها.

نظرت إلى الخلف، ووقعت عيناها في وجهي وأنا ألوح لها مبتسما، بدأت تقترب حتى كادت تلتصق بي. أخبرتها في هذه اللحظة بكل شيء .

وعلى عكس ما كنت أتوقع، انهارت حزينة، وبدأت ترتسم على وجهها علامات القلق والغضب. وتوجهت إلي بقولها : كن حكيما لم يعد في وسعي أن أفقدك .

شعرت بالحيرة في أمري والتيه يرميني من حلم الهجرة إلى حلم

شامة وقلت مرتبكا. لن تفقدني سأرجع بعدما أدبر أمري، وأخطفك معي لنعيش في أوربا، بعد الخطبة والعرس نسافر مباشرة .

سهت قليلا وكانت تخمن في نفسها: كيف يرجع لي من أوربا وهناك نساء كاسيات عاريات. سأنتظر الريح، ستخطفه مني بنات أوربا وسألت نفسها: هل أنا غبية لهذا الحد؟.

عانقت الحزن وأرسلت دموعها تغسل اللحظة وأخبرتني أنها لن تقبل، حاولت تهدئتها وإقناعها وفشلت.

كانت تصرخ مثل مجنونة إلا الهجرة لن أقبل بها بتاتا. ولم تجد في هذه المناسبة غير قصيدة نزار قباني ترميها على مسامعي لعل نفسي ترقى لحالها وأعدل عن فكرة الهجرة وبدأت تنشد:

أنزع حبيبي معطف السفر...

وابق معي حتى نهايات العمر...

ما أنا مجنونة كي أوقف القضاء والقدر...

وما أنا مجنونة كي أطفئ القمر...

ماذا أنا لو أنت لا تحبني...

ما الليل ما النهار ما النجوم ما السهر...

ستصبح الايام لا طعم لها , وتصبح الحقول لا لون لها...

وتصبح الاشكال لا شكل لها...

ويصبح الربيع مستحيلا

والعمر مستحيلا...

إبق حبيبي دائما كي يورق الشجر...

إبق حبيبي دائما كي يهطل المطر...

إبق حبيبي دائما كي تطلع الوردة من قلب حجر...

لا تكترث بكل ما أقول يا حبيبي...

في زمن الوحدة أو وقت الضجر...

وابق معي إذا أنا سألتك الرحيلاَ...

نسيت كل شيء هذه اللحظة، وذابت كل المصاعب، لأول مرة أشعر بفخر الوجود، على الأقل هناك شخص ينشد قصائد العشق من أجلي، تعزف من أجلي أغاني الأحزان إذا قررت الفراق. انصهرت مشاعري شوقا وأنا أردد في نفسي : تمنيت لو أستطيع أن أضمها بكل قوة الوجود، وأحتضنها بين ذراعي كي تشق خواطري بمعول القدر.

وبعدما عبرت لها عن سعادتي بالكلمات الرائعة التي شقت مسامعي وخرقت مشاعري أخبرتها بأن السعي في الأرض مطلوب، والتوق إلى النجاح مرغوب، والفرص محاطة بالمشاكل، إن لم نقتحم المشاكل ونواجه الصعاب ونتغلب على الخوف نبقى حبيسي الخيال. نتخيل الحياة فقط ولا نعيشها ولكن الوقت لا ينتظرنا، وأنا عنيد، وعنادي لا حدود له، كم تغني العصافير لفصل الربيع، وكم يرفرف الحمام فوق الغدير... ولكن

عند آخر نقطة من الربيع وآخر قطرة ماء النهر، يهجر الحمام، وتصوم العصافير فلا حب في الفناء .

نظرت إلى عينيها الحزينتين وقلت لها :

قلت لي إبق معي ...

أقرأ في عينيك البراءة، ولكن الزمان لن يصفح للحلم، كل شيء سيغدو ثقيلا بلا كيان. وأخشى أن أموت أبكم، لا صوت أرميه في صدر الحياة، ولا كلمة مثقوبة في رحم الوجود. ومن المثير للمرارة أن ننتزع من الوجود حقنا في الحياة.

احمر وجهها وهي تنظر إلي، كانت متلهفة لقطف الشمعة، وأنا أحترق لرمي جمرات العشق التي تدغدغ وجداني إلى رحاب المنفى. تخيلتها تقول في صمت: أليس هذا نفيا لحبنا في جغرافية الغربة...

ونحن نتبادل النظرات الحزينة قلت لها: لا أملك الصبر، سأجرب. سأذهب.

قالت في نفسها إذا ذهب هل يعود إلى حضني؟. ثم صرخت قائلة: لا تذهب، لا تتسرع، وإذا كان من الضروري الذهاب لا تذهب.

قلت لها وأنا أتظاهر بالاندهاش: ولما لا أذهب؟. لا أقول هذا من أجل ازعاجك. قاطعتني ولماذا إذن الاستفزاز؟.

كتمت مشاعري، فقد سحقني وجع اليأس، وفوق هذا أعرف الآن أنها تعتصر بوجع الفراق. وحاولت تدارك الموقف وقلت لها : أستغفر الله،

من يتجرأ على استفزاز من أودع القلب أفراحا. ولكن الحياة لا تتوقف في السطر الحزين، علينا أن نكتب ما تبقى لنا من كلمات. للأسف هذه الكلمات لا أملك حروفها لقد سرقها مني الحلم. وبللتها أمواج البحر، أعذرني لا وجه أمامي غير وجه أوربا...

انصرفت غاضبة دون أن تحدثني في شيء، ودون أن تودعني، ودون أن تنظر إلي. كانت ترمي رجليها المتثاقلتين وتبتعد عني شيئا فشيئا... وأنا أحترق من كل الجهات. الحب يبتزني، والحلم يمزقني. واللحظة تضعني أمام مواقف غريبة. لا بد من الخسارة أولا وانتظار الربح قد يأتي وقد لا يأتي. لا ضمانة مؤكدة للربح، وقد تتلقى ضربات موجعة وقاسية، والشعور باليأس يرميك إلى حيث تشتهي أحلام الحياة كرمانة ملفوفة بالأسرار .

لم أكن أرغب في تكسير خاطرها، الحياة تعطيني أجمل هدية في الوقت الذي لا نتوقع فيه ذلك، مسكينة شامة أطلت من نافذة الحلم، تسألني عن همومي وأحزاني. رأيت جسمها النحيف يرتعش كطائر صعقته سهام الصياد بلا رحمة. كم من سؤال معلق في صمت جوفها بلا جواب، وكم من صورة رسمتها في حلمها أيقظتها من النسيان ولما لا أرهقت تفكيرها.

الموسيقى ليست مجرد حروف نعزفها على أوتار الوجود، ولا أنغام نرمم بها لحظات خارج سبورة الأيام. بل هي عشق يشق شراايين السماء .

بقيت بعض الوقت في مكاني جامدا، تحركني الأسئلة ذات اليمين وذات الشمال. فقد زلزلت شامة حلمي، وانسابت كلماتها الرقيقة عمق شراييني، تحرشت بقرار الهجرة وكادت تخنقه، بدأ يتنفس بصعوبة كبيرة، رجة عميقة هزت وجداني .

رجعت إلى المنزل كنت جائعا جدا ومع ذلك ليست لي شهية الأكل. كانت أمي في المطبخ تعد الطعام، على التو دخل أبي الذي يعمل دائما وكأنه خلق ليعمل بلا ملل ولا كلل. عشقه للأرض فوق أن يوصف. أدمن الأرض حرثا وسقيا وتشذيبا...

على مائدة الطعام، أخبرتهم برغبتي في الهجرة إلى أوربا. اندهشت أمي لدرجة كادت تزهق روحها بسبب الطعام الذي كان بحلقها، وهو ما انتبهت إليه وأسرعت بإسعافها بشربة ماء. مما أثار غضب أبي الذي اعترض على الفكرة بقوله : انظر ماذا كنت ستفعل بنا، نملك كنز لا يفنى، ولدنا في هذه الأرض، وسنموت فيها. هي سترتنا في الحياة والموت .

توقفت عن الأكل ونهضت واقفا وصرخت بأعلى صوتي : ولكنها حياة بائسة، أنا غير مستعد لدفن حياتي في هذه الحفرة .

زاد غضب أبي وقال بصوت مرتفع : هذه الحفرة هي من جعلتك هكذا، الأرض أعطيها تعطيك. اللهم لك الحمد. مستورين، نأكل من عرق جبيننا .

قلت له كان ذلك مقبولا في الماضي أما الآن كل شيء تغير ونمط العيش يتغير كل ثانية ونحن يسكننا الجمود وتربطنا أغلال الحنين للأرض بغلاف المقدس يصعب هدمه أو تكسيره. فالأصل هو أن يسيح الإنسان في الأرض، يبحث عن سبل جديدة. يغير عتبة الباب عسى أن تتغير حياته. مللنا حياة رتيبة، نعيد نفس الشريط كل يوم، وكل سنة.

الكثير يسكنه الوهم بأن الهجرة جريمة. التقديس الأعمى للأرض لا مبرر له. الأرض ليست ملكا لأحد. ربما في زمان ما، كانت هذه الأرض كنزا ولكنها اليوم على العكس من ذلك. أنا لا جهد لي لأصارع الطبيعة، وأقاوم التضاريس والمناخ .

خرجت غاضبا، وبدأت أتمشى حتى إبتعدت عن المنزل. إلتقيت شامة صدفة كانت في طريقها إلى منزل خالتها. ابتسمت للمصادفة قبل أن تنتبه إلى علامة الحزن التي تخترق وجهي. أخبرتها أن أبي يشبهها، رفض بشكل قاطع فكرة الهجرة .

فقالت: بعد صمت قصير، راودتني فكرة الرفض، ويسعدني ذلك. لا أدري لماذا أنت مصر على ركوب سفينة المجهول. هل تتذكر لقد قلت لي أنك تحب الوضوح وتكره الغموض. وها أنت ترمي مستقبلك للغموض، وحبنا للغموض، وحياتك كلها للغموض. ولا تنسى قوله تعالى : " وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ" البقرة: 216

الشر هو البقاء هنا، وصرخت في وجهها اتركوني وشأني. قفزت

من مكانها وابتعدت عني. وقالت بغضب. أنا قلت رأيي فقط وبما أنه لا يهمك، افعل ما تراه مناسب لك .

أحسست بأنني كنت قاسي جدا معها. اعتذرت لها وأخبرتها أنني لم أتمالك نفسي نتيجة الضغط الذي أعيشه، ولكن ماذا سأفعل هنا في نظرك، أحرث الأرض؟ .

وما العيب في حرث الأرض هكذا أجابتني وهي تضحك.

أنا بدوري ضحكت وقلت لها فعلا لولا الحرث لما كان الإنسان؟ .

ظهر على وجهها نوع من الاستغراب لكلامي وقالت:

ما علاقة الحرث بالإنسان؟.

رفعت عيني إلى السماء. اهتز شيء مجهول بداخلي، ولم أبالي. أمسكت يدها برفق وقلت :لها أعرف، أنك تعرف، ومع ذلك سأخبرك ...

ضحكت وقالت، أقسم لك لا أعرف، ولماذا أسأل إذن؟.

كنت ما أزال ممسكا بيدها، انتابتني رغبة جامحة لضمها إلى صدري حتى تختلط ضلوعنا، خمنت أنها استحلت اللحظة لأنها تداعب بأصابعها أصابعي وكم كان شعورا غامرا بالسعادة.

وهي تتابع شفتاي قلت لها، الحقيقة كنت أعتقد أنك سمعت بهذا ... وبما أنك لم تسمعي افتحي أذنيك.

ضحكت، وهمست في أذني أسرع، لقد تأخرت كثيرا .

رأيت المرح يداعب وجدانها، ورميت كلامي على مسامعها: لا أدري

كيف أشرح لك؟.

ولكن المهم: تحرث الأرض والنساء.

أرجو أن تكوني قد فهمت، لن أخوض في التفاصيل.

قهقهت بأعلى صوتها، وتغيرت ملامح وجهها، وقالت كنت أنتظر شيئا آخر. ربما تقصد تحرث الأرض لينبت الزرع، وتحرث النساء ليغرق الوجود بالنحس .

ضحكت بيني وبين نفسي ضحكة خفيفة، وسألتها ماذا تقصدي بالنحس؟. وهي تهم بالمغادرة أجابت:

أنا ... أنا النحس بعينيه يمشي في الأرض.

لم تتاح لي الفرصة للرد، ولم أتمكن من بإخبارها أن قرار الرحيل لا رجعة فيه .

الفصل الثاني

كنت أحلق ببلاهة في الحلم، ولم يترك لي مساحة التفكير حولي، لا في عائلتي، ولا في شامة، ولا غيره ... كانت أمواج البحر وحدها من تداعب اللحظة. وأروبا مرسومة كلوحة يتربع عليها حلمي، ولم أكن سوى حطاما آدميا يمشي منتظرا شمس أروبا تشرق تحت سماء حلمي.

وكأنها الغشاوة غلفت عيني وسدت كل أبواب الجمال القابع في قريتي ولم أعد أرى سوى المسافات الطويلة، أو ما وراء البحار.

حاولت الاختباء في مكان بعيد لأتخلص من رعونة الأسئلة، جلست وحيدا أفكر في الأمر. تسللت إلى خلوتي الكثير من الأسئلة المستفزة، وجردتني من عشق شامة. كانت مثل بلور تتغنج عطرها الفواح، أفزعني الموقف حد الرعب وكأن لسان حالي يقول في صمت قاتل، الإنسان لا يحصد إلا ما زرعت يداه. ومن الضروري أن أزرع شيء من أجل الحصاد وإلا جنيت ثمرة حارقة عقابا على تملصي من مسؤوليتي .

الغابة مثل شمعة في دفئها، لا تضيء مجانا ... ترك هذا الصوت بداخلي طنينا مزعجا، فشعرت بحرارة تتسلل عمق شراييني. خلت نفسي وسط نيران ملتهبة. كان الليل في بدايته وأنا حائر بين الذهاب إلى المنزل، أو الهروب إلى المجهول.

كنت عاجزا عن فعل أي شيء، مرت أمام عيني كل كوابيس الوجود. والآتي في علم الغيب. مشيت قليلا دون أن أرسم لطريقي هدفا، ولم أنتبه إلا عندما وجدت نفسي قطعت مسافة طويلة، وما كان مني إلا أن أستمر في طريقي. مخلفا ورائي كل شيء. شامة حزينة وجريحة لم ترغب في

فراقي، وعائلة حائرة لا عنوان ولا دليل لها عن اختفائي. فقط ترجلت المسير دون أن أقرر حتى.

بعد يومين وجدت نفسي على شواطئ واد لو. كيف وصلت إلى هنا لست أدري كنت متعب من المسير ومن ثقل الأسئلة، كنت أحدق في الوجوه ولا أحد يشبهني، وجوه ضاحكة إلى البحر ناضرة، ووجوه مبتسمة تتقاسم الفرح مع أمواج البحر ورمل الشاطئ. ووجهي خالي من المرح، وحده الفزع يداعب لحظتي...

تعرفت على محمد الحوات، رجل تجاوز عقده الرابع، يصطاد السمك في الصباح الباكر ويبيعه للذين قرص الجوع معدتهم، بعدما يدسه في الملح ويرميه على النار يشوى.

اقترح علي العمل معه وكنت مسرورا بهذا العرض، كنت محتاج إلى من يحتضنني، كنت شبه تائه ، كنت ما أزال أتأمل أمواج البحر وهي تداعب حبات الرمل والشمس بدأت ترسل خيوطها ومحمد الحوات يرمي السمك الذي يقع في سنارته في سلة مخصصة لهذا الغرض قال لي: منذ أكثر من عشرين سنة وأنا أعمل هنا، هذه حرفتي وهذا قوت أولادي.

تمر علينا أوقات عصيبة وينقطع مدخول جيبنا طيلة السنة، ننتظر عطلة الصيف كما ينتظرها التلاميذ للتخلص من الواجبات الدراسية. بينما نحن ننتظرها لسد الديون المتراكمة علينا طيلة السنة ، ولكن الحمد لله في الصيف كما ترى نشمر على سواعدنا وبركة الله لا تنقطع.

وأنا أتلقف الكلمات الخارجة من شفتيه كنت مشغول بفكرة الهجرة

وأتأمل البحر وكأن لسان حالي يسأله عن أقرب طريق للهجرة. فاجئني بسؤاله هل سبق لك واشتغلت مع أحد؟.

أجبته وأنا أراقب يداه وهي ترمي السمك في السلة ، لم يسبق لي العمل في أي ميدان. هز رأسه مبتسما وقال لا مشكلة، إذن هي فرصتك لتتعلم... وضع السلة على كتفه وقال اتبعني، خمنت أن أحملها بدله سيكون أفضل، ولكني لم أفعل واكتفيت بالمشي وراءه. حتى وصلنا إلى خيمة على جنبات البحر مربوطة بأوتاد في عمق الرمال، كراسي بلاستيكية متسخة موزعة بشكل عشوائي في الرمال يقصدها الزبناء الذين لوت أمواج البحر أمعائهم.

محمد الحوات مشهور في المنطقة بالمأكولات البسيطة : السمك المشوي، وفي المساء الحرشة والملوي إلى جانب كؤوس الشاي. مع مرور الأيام بدأ يعتمد علي ، تعلمت الكثير منه، رجل خبر أسرار البحر في جعبته الكثير من الحكايات والقصص عن التهريب والهجرة السرية، يعرفهم بالأسماء ويعرف الطرق التي يستعملونها .

حدث لي موقف طريف هناك، كنت أتمشى في أحد الليالي حيث النجوم المرصعة تنير السماء. وأمواج البحر الهادئة تنبئ باستقرار الحياة. كنت أتمشى حافيا. استوقفني رجل غريب لم يسبق لي رؤيته وسألني. هل ترغب في الهجرة إلى إسبانيا بعد قليل سينطلق قارب قريب من هنا. تخيلت وجه أمي، تخيلتها تحترق شوقا، وأبي يعدها بقوله سأجد ابني قريبا. ووجه شامة وهي تتوسل السماء بأن أطل عليها قريبا، انقبض قلبي وبدأت

التموجات ترتسم على وجهي وقلت له لا. أنا هنا من أجل السياحة فقط أستمتع بجمال البحر في الصباح الباكر وعائلتي تنتظرني في الفندق .

انصرف وانتبهت أنه ما كان علي الرفض، هي فرصتي التي أنتظرها منذ زمن طويل، وماذا أفعل أنا هنا، تركت عائلتي حائرة وشامة غاضبة من أجل تحقيق حلمي في الهجرة إلى أروبا .

لما رجعت حكيت لمحمد الحوات ما وقع لي في الصباح الباكر وأخبرته أنني ندمت ندما شديدا على الرفض. جاءت الفرصة إلى يدي وضيعتها.

قال لي وهل تنوي التخلي عني؟.

نظرت إليه وهو يمسح شفتيه وقلت له أستغفر الله أنت معلمي ولكن لا أخفي عليك الهجرة إلى أروبا هي حلمي...

صمت قليلا، وقال : بسيطة، أنا أحل المشكل، نهض من مكانه وأخرج من جيبه مذكرة، بدأ يتفحصها ويقلب في أوراقها، سجل رقما في هاتفه وبدأ يتكلم بصوت خافت غير مسموع. وبعدها أخبرني أن الهجرة إلى أوربا ستكون هدية منه لي. كعربون محبة وقال وهو ينظر إلي : ها قد انفرج الكرب، لا تنساني عند عودتك للمغرب.

شكرته على معروفه وقلت له لا ينكر الخير إلا جاحد...

في المساء جاء رجل غريب ويبدو من خلال حديثه مع محمد الحوات أنهما أصدقاء من زمن طويل. أشار إلي وقال له هذا هو، فهمت الموضوع

ساعتها وقال لي الرجل كن شجاعا ومستعدا غدا أو بعد غد ستهجر هذه الأرض إلى إسبانيا أرض الميعاد .

غمرني فرح كبير ، كنت مثل عصفور يغرد في سماء الفرح، وقلت في نفسي انفرج الكرب، عما قريب سأرحل وأعانق الحلم. انتابني شعور غريب وتذكرت وجه أمي وتخيلت حالة شامة وبدأت التموجات كسحابة تغلف وجودي. لحظة فارقة في حياتي وأنا أعتصر بين حلمين واحد ترقبته بكل شغف، وواحد رميته بكل رعونة الوجود. حتى توسلات شامة لم تشق طريقها إلى مسح حلم الهجرة الذي ملك كياني كله.

كانت شامة تتلوى مثل أقحوان فقد عبير المرح، تبدأ صباحها بسقي الشتلة المجاورة للمنزل وتداعبها وتردد في نفسها: ستكبر وتصبح شجرة كبيرة وتشهد على قلبي المحترق من الغياب، أسقيك كل صباح بدموعي على الريق، قبل أن تفرك الشمس خيوط الذكريات، وأبللك بقطرات ندى الحزن كل مساء قبل أن يرمي الغروب وهج الشوق المشتعل بوجداني إلى متاهات المجهول. وأجفف الليل من العشق ولا أجد عشقا حارقا أكثر مما يرسله قلبي إلى منفى أحمد .

لقد قلت لك يا أحمد تحرث النساء ليغرق الوجود بالنحس، وقلت لك أنا النحس بعينه. لم يكن بوسعي أن أقف ضد طيشك وتهورك، لم يكن بوسعي أن أقتل فكرة الهجرة من دماغك وأمسحها تماما من مذكرة تفكيرك... كنت متلهفة لسماع خفوق قلبك لشعيرات جسمي، كنت أترنح مثل نجمة ساطعة في السماء، أراقب مرورك في ظلمة الليل لأنير دربك بوهج العشق...

خطفك البحر من جداول أيامي وغدوت مثل يتيمة فقدت صوابها، كبرياء الطفولة ورعونة الشباب يحرقها الانتظار ولا خبر.

كل ما كنت أخاف منه حدث ، كنت أخاف خسرانك بعدما آنست وحدتي وتجرأت على اقتحام خوالج عشقي...

أتصفح الأيام وتتحرش دموعي على الذكرى، عندما أخبرتني أنك تكره الغموض لم يتصور بخلدي أنك أنت الغموض، ولماذا تحرض الوضوح على الاختباء من صباحتي ولا أرى همسة من همسات صوتك تقترب إلي،

ولا دقات قلبك تخفق على صدري العاري... رميتني إلى بحر الغموض بتصلبك، وعنادك ...

سهت قليلا وصرخت في صمت لماذا أنا هائمة به، وهو لم يكلف نفسه أن يسمع لقولي، لقد توسلت إليه أن لا يفعلها. ولكنه تركني وراح. هذا ليس حبا، هذه عبودية.

ودعت محمد الحوات وشكرته على معروفه، ومشيت خلف الرجل الغريب في صمت دون أن أنبس بكلمة. لكن بعد وصوله للمكان كان حراس خفر السواحل على مقربة مني اضطر الجميع إلى الهروب والاختباء بعيدا حتى لا نقع في قبضتهم. يا له من حظ سيء هكذا قلت لنفسي.

كان الهروب عشوائيا ولم أتعرف على الرجل في زحمة الهروب وضللت الطريق فكرت في أشياء كثيرة وتساءلت: لماذا يصادفني النحس؟.

تسلل كل واحد إلى وجهة مجهولة وكنت وحيدا لا أعرف أحد بصعوبة كبيرة تتبعت أثر محمد الحوات، حكيت له ما جرى. قال خيرا إن شاء اللّه لا تقلق .

استسلمت للنوم وأنا أرتعش خوفا، وفشلت على إبعاد صورة أمي عن وجهي تخيلتها تبكي، تخيلتها تصرخ، تخيلتها فقدت صوابها جنونا علي... كان الشوق إليها يحركني من الأعماق ولكن حلم الهجرة كان أقوى من كل شيء...

في الغد جاء الرجل وسلمني رقم هاتف صديقه يقطن بمدينة العرائش ولكن من أين تنطلق العملية لا يعرف قال ربما من جهة الشرق مع حدود الجزائر. وطلب مني كتمان الأمر. وأخبرني أنه هو كذلك صديق محمد الحوات، لكنه يهرب المخدرات وكل الممنوعات وتذكرت أعمال التهريب التي كان يحكي لي عنها محمد الحوات.

في اليوم الموالي سافرت إلى مدينة العرائش، التقينا بمقهى شعبي ولم يستغرق اللقاء أكثر من عشر دقائق. كان خائفا وغير واثق يحتاط من كل حركة مريبة خلفه أو أمامه، وعندما كنت أحدق في شيء، كان يحذرني لا تثير الانتباه تحرك عادي، ركبنا سيارة رباعية الدفع إلى وجهة مجهولة كانت تسير بسرعة فائقة. وصلنا إلى مكان خلاء كان الوقت ليلا. وجدنا مجموعة من الشباب في انتظارنا. بدأ يفتشنا واحدا واحدا ويأخذ منا الهواتف وكل ما يعتبره ممنوعا في العمليات السرية كالتصوير وغيره...

ركبنا شاحنة كبيرة وسدت علينا الباب كدت أختنق عند كثرة الازدحام، قطعنا مسافة طويلة كنت أحس بالتعب والإرهاق، لا حق لك في السؤال، ولا في التراجع عن فكرة الهجرة بعد هذه اللحظة .

وصلنا إلى مكان لم أتمكن من التعرف عليه، كان في استقبالنا

وسيط آخر، فهمت أن العملية لها عدة وسائط كل واحد له دور معين وينتهي دوره بتسليم البضاعة لوسيط آخر وهكذا. ركبنا الزورق وبدأت أمواج البحر تتحرش بنا. لا أستطيع وصف شعوري لحظتها، أصبحنا خارج الزمان والمكان. بل خارج الإنسانية تماما... وصلنا إلى مكان سمعت الكثير يقول إنها زوارة الليبية.

تم احتجازنا في مكان مظلم ولم يسمح لنا بالخروج أو الاستفسار.

كل مرة كان يدخل علينا شخص غريب وكلهم يرددون نفس الكلام : لم يبقى إلا القليل، عليكم بالصبر ومن ارتكب حماقة سيدفع الثمن غاليا. سمعنا الكثير عن تهريب الأسلحة والمخدرات والتجارة بالأطفال وغيرها من الأعمال التي لا تخطر على بال. والموقف المؤلم الذي حز في نفسي هم السوريون يتسولون في كل مكان، بعدما اقتسمت أرضهم مصالح الغرب والشرق، ورمت بهم للمجهول يواجهون قدرهم البئيس.

هذا عالم آخر مرسوم في فلك الوجود، لا تستطيع يد القانون الإمساك به، أو تطويعه، عصابات تقتات على وجع الناس، كنت منهار تماما وشعرت بخيبة أمل تجتاح كياني. تأكد لي أن حقوق الإنسان هي مجرد لعبة ، ما تراه عيني الآن خارج كل معالم الإنسانية ...

شعرت فعلا أنني في يد عصابة منظمة، يتحكمون في قبضة العباد يستعبدون الناس ويستغلونهم في سوق خارج القانون. سمعت صوتا ينادي من الخارج بسرعة، بسرعة، بسرعة...

وبدأنا نتسابق على الارتماء في الزورق عشوائيا، لا وقت للانتظار،

ومن يقف مترددا يرميه الوسيط بلا رحمة إلى زحمة القارب. نحن في نقطة اللاعودة. ليست هناك ضمانات الوصول، المال يدفع مسبقا. لم أعرف كم من الوقت استغرقنا للوصول إلى جزيرة لامبيدوزا الإيطالية.

لأول مرة منذ تسليم أنفسنا لهذه العصابة سمح لنا بالخروج علانية. أدهشني شاطئ لامبيدوزا الجميل، وأحسست بغربة جامحة تحرق مشاعري. حاولت تملك نفسي وفشلت، غلبتني دموعي وبدأت تغسل وجهي، ووجه أمي وأبي وضحى ومراد ترتسم أمام عوالمي وتخيلت شامة وحيدة، وصوتها يلاحقني:

أنزع حبيبي معطف السفر...

وابق معي حتى نهايات العمر...

ما أنا مجنونة كي أوقف القضاء والقدر...

وما أنا مجنونة كي أطفئ القمر...

كان تحديا حقيقيا بالنسبة لي، تملكني شعور غريب ... أنا في نقطة اللاعودة. تشجعت ومشيت قليلا في الشارع أغلب المارين إيطاليين أو سياح لم أكن أعرف الإيطالية واكتفيت بالمشاهدة، لم أكن أعرف مصيري، كل ما أعرفه لا حق لي في السؤال، وأية حماقة قد تكلفني حياتي. كنت مجبرا على انتظار ما سيأتي، واكتفيت بالترقب والقلق يحصد أحشائي.

في مقهى مجاورة للميناء يلتقي أغلب الوسطاء مع أرباب العمل، السمسرة تتم هنا وتعقد الصفقات وكأننا قطيع. زوارق تصل وأخرى ترحل

حركات دائمة ومتواصلة. غلبني العياء ولم أستطيع المقاومة كان الجوع يقطع أمعائي وعيناي تنكمش لم أعد أطيق فتحها في الهواء لم أنام منذ مدة تقريبا إلا لحظات متقطعة ... نمت نوما عميقا ولم أستيقظ إلا في صقيلية جنوب إيطاليا.

فتحت عيني واندهشت لما أراه أمامي ولم أصدق نفسي أنني أمام وجه آخر لأوروبا. بدأ الرعب يخنقني وأنا أتصفح الوجوه البئيسة التي فقدت كبرياءها.

أصبحت شبه مشلول، ولم أطيق ما أشاهده بعيني الآن. عالم الشقاء فتح شهيته لقضم ما تبقى من الحلم، ولكني عاجز تماما على فعل أي شيء، فقط علي التكيف مع الوضع. اقترب مني شاب وهو يمسح العرق المتساقط على جبهته جراء حمله صناديق ثقيلة من الطماطم ووضعها في الشاحنة وقال لي بلهجة تونسية مرحبا بك ستعتاد على هذا الوضع.

اكتفيت بالصمت لأن الصدمة خنقت أنفاسي لكنه واصل حديثه معي بطريقته الخاصة وهو ينظر إلي مبتسما وقال : أنت شاب أنيق واضح لم يسبق لك أن تمرغت في هذه الأشغال الشاقة وتمرنت عليها، ولكنك ستعتاد، ستعتاد يقولها وهو يهز رأسه وكأنه يتحسر على نفسه أو ربما يعتقد أنني نسخة منه، والفرق بيننا هو أنه اعتاد الوضع وأنا في بداية الطريق.

حاولت أن لا أتظاهر بالضعف وقلت له ليست هناك مشكلة سنعتاد، وقبل أن يغادر مع الشاحنة قال لي : هذا عالم آخر ووجه آخر من

وجوه الحياة. إياك أن تكون متصلبا، أو عنيدا ، اقترب مني وهمس بصمت في أذني هذه أرض المافيا، وليست أرض حقوق والكلاب لها قيمة أكثر من المهاجرين هنا.

كانت خيبة أملي كبيرة، وخرافة أوربا تسقط أمام عيني يوما عن يوم... ولكن الشيء الذي حز في نفسي هو أنني تخليت عن كل شيء من أجل هذه اللحظة البئيسة...

أي شيء أنا؟. أنا مجرد بضاعة في يد المهربين.

أنا مجرد سلعة في يد اللصوص.

أنا ثروة لمافيا التهريب.

أنا مجرد بضاعة رخيصة، بلا هوية، بلا قيمة، بلا حرية.

أنا مجرد أحلام ممزقة.

أنا مجرد أماني مغتصبة.

كان الحلم واليوم بشاعة.

كم أنت بشع أيها الجشع.

كم أنت محملة بالنفاق يا أوربا.

كم أنت قبيح أيها الحلم، وكم أنت لعين أيها المغتصب.

تخيلت أوربا جنة الله في أرضه، وما هي إلا قطعة من الجحيم للمستضعفين.

تلك الكذبة التي خدعتنا بها الفلسفة الغربية،

وانتفخت أوداج مروجها...

القيم الكونية، الكرامة الإنسانية، العدالة الاجتماعية...

الحرية ، المساواة ، العدالة...

تعالى لتحفر قبرك بيدك، كما حفرته أنا وأمثالي كثير، الباحثين عن الحياة...

أوربا تقدم الدروس في حقوق الإنسان، وتغض عينيها عن ما يقع داخل أحشاءها، من ظلم واستغلال بشع للمهاجرين.

ولكن لا نحملها فوق طاقتها وهي التي شيدت بنيانها على سواعد الغير من المستضعفين ولا غرابة في ذلك فهي نكلت وقتلت وشردت، واغتصبت حقوق الشعوب... ومازال التاريخ حامل بالغل. ومازالت الجغرافية العربية والإفريقية تشهد ليومنا هذا استغلال بشع للثروات وخيرات الشعوب...

كيف تخليت عن حريتي من أجل لقمة العيش؟.

ما تستحق هذه العتمة أن أركب من أجلها سفينة الجنون. كاد عقلي يجن ولم أستوعب حجم الندم المتساقط على خلدي هذه اللحظة، ولكن علي مسايرة الوضع حتى أبحث عن مخرج.

تصفحت الموت أكثر من مرة لدفن نفسي في مستنقع فضيع، احتجزت تذكرة الموت بنفسي من أجل الجحيم. وبالطبع كان علي فعل هذا لأفهم كم أنا عنيد، وكم رميت نفسي للمجهول. ولكن ما ذنبي أنا الصورة المرسومة في دماغي عن وجه أوربا ليست كما هي في الواقع. على الأقل الوجه الذي تبدى لي واضحا وكاشفا في هذه البقعة الضيقة وما يقع خارجها بالطبع هو خارج وعيي الآن.

أدركت أن حاجتي إلى الصبر لأتعود أكثر من حاجتي إلى الماء والطعام للبقاء. ولكن ربما أتعلم شيء مفيد في حياتي، لم تكن لي النية العمل في الحقول لو كان الأمر كذلك لما تركت قريتي.

آه تحرث الأرض والنساء، تحرث الأرض لينبت الزرع ، وتحرث النساء ليغرق الوجود بالنحس. تذكرت شامة وضحكت ثم سألت نفسي : هل هناك نحس أكثر من هذا؟.

تحرث الأرض والنساء ويحرث الحلم، والأمل. عندما تزرع الحلم في المجهول وترمي الأمل إلى الغموض لن تحصد سوى سحابة رياح تشتهي العبث بحدائق العمر.

تمر الأيام وأحاول قدر المستطاع التكيف مع الوضع، منذ أكثر من سنتين وأنا أشتهي صوت أمي، وربما هي أكثر مني شوقا . كانت رطوبة الصباح تغريني بالتمرد وبدأ دماغي يحفر الحيل التي تمسك بالصوت الرخيم. بدأت التموجات تعصف كياني لم أختر الحلم ولكنه اختارني على نحو غامض.

عقلي معلق على أسوار القرية، عكس ما كنت أتوقع لقد خذلني الحلم. جالت في ذهني بعض الخواطر عن الماضي القريب، وفجأة حل صاحب الضيعة آلفت وجهه تقريبا كل صباح يلقي علينا التحية ودون استئذان يرمي الكلمات الجارحة ويوزعها على العمال بحقد مبالغ فيه. وكان نصيبي الأوفر هذه المرة وكأن شيء آخر مخبئ في فلك الوجع، ربحت العناد وخسرت كل شيء، كل شيء تقريبا.

قبل أن يغادر صفع ياسر المهاجر السوري الذي هرب من جحيم سوريا إلى جحيم المافيا. كلنا هنا في قبضة المافيا وحتى في بلداننا يخيل إلينا أننا في قبضة المافيا تتغير الأساليب وطرق الاستغلال.

صفعه صفعة قوية حتى سقط على الأرض وما كاد يقوم حتى وصلته لكمة غادرة... مسكين ياسر يكتفي بالوجع والصمت، يحرق زهرة حياته لم يبلغ الخامسة عشر من عمره. ومع ذلك لم يكن القدر رحيما كأبناء بلدته ساقهم قدرهم للتخلي عن كل شيء لتحمل قساوة العيش.

من يدون هذا في عنق التاريخ، ربما التاريخ إلتهمته ألسنة حارقة

وملأت كل فراغاته بما لا ينبغي أن يكتب، وتركت القضايا الفاصلة في بوصلة الحياة تحرقها نار المافيا بكل تلابيبها وجلابيبها البيضاء والسوداء.

ليتني ما جئت إلى هنا حتى لا أرى ما أراه، وأسمع ما أسمعه. وأعيش ما أعيشه. ولكن بماذا يفديني كل هذا العداء لذاتي الآن؟. علي التصالح معها غير هذا لن تقوم لي قائمة هنا، وهذا التصالح بما يعنيه لي من التخلي عن ذاتي...

تلك هي المفارقة الغريبة أن تتصالح مع ذاتك يعني التخلي عنها، رميها بعيدا عنك. أن تنسى كونك إنسان. كونك بني آدم، التخلي عن ذاتك يعني التصالح مع كل السلوكيات غير المقبولة لتصبح عادية ومألوفة ومقبولة.

هذا الصلح هو من يفتح الطريق للعداء بأن يختفي، يختفي للأبد. أو ربما يصبح فن العيش هو المجازفة من أجل البقاء. والحياة كلها مجرد ركض وراء بقشيش. تلك السخافة التي انتحرت من أجلها وتخليت عن كل شيء، حتى ذاتي آخر ما تبقى من الطواف أدفنها قبل أن تدسها أقدام الأوغاد.

أن تعيش بلا روح تلك المصيبة الكبرى. وأن تسلم رقبتك للطيش تلك الجريمة الغبية. التي دست السم الحلو في حلمي، ولم يعد حلمي لا ربيعا ولا خريفا. بل لا صيفا ولا شتاء. هو فقط وحش أسطوري انبعث من الرماد ليغتال كل شيء جميل كان يرقص على شعيرات أيامي...

كانت الشمس تنطفئ في السماء، والحلم ينطفئ بداخلي وربما

العتمة المرسومة بداخلي أكثر قتامة من غسق الدجى.

قلت في نفسي إذا جاء هذا الوغد غدا وكرر ذلك معي أو مع غيري، سأرمي بالطيش إلى أبعد الحدود. وليكن ما يكون، لا شيء أخسره. لقد خسرت كل شيء ولست مستعدا لحمل هذا الثقل طول عمري.

حاولت أن أرفع رأسي وراء الظلام ولكن الليلة القاسية رمت كل هموم الوجود علي دفعة واحدة، والثمن الذي أدفعه الآن كان علي التفكير فيه قبل سنوات. ولا شيء يعجبني سوى الغضب الذي يكبر بداخلي وحده من يجعلني لست راضيا عن كل هذا الذل والحقارة التي يتمرغ في أوحالها كل طائش يبحث عن أمل. أو كل حالم يحلم في البقعة السوداء ويعتقد أن البقع الأخرى مرصعة بالبياض.

أصعب شيء في الوجود هي أن تحيى الحياة غصبا عنك، هي حقا ليست حياة هي الموت كل لحظة وكل ثانية تتنفس فيها طعم الوجود. هذا الموت يقتل بداخلك كل جمالية الحياة ولا حياة إذا انتزعت منها تلك .

ولكن الشيء الوحيد الذي يملأ فراغات داخلي هو حلم التغيير هذا الإيمان الذي يملأ قلبي يجعلني مهما قاسيت ومهما عانيت هناك شيء ما ينتظرني في مكان ما وفي وقت ما. هذا الشيء وهذا المكان وهذا الزمان ربما مازال طويلا وعلي الركض بكل قواي. حتى ولو وسط البقع السوداء وداخل الليالي المظلمة ومن دائرة مغلقة ملفوفة بالعتمة.

في الصباح كان الأمل يتجدد وكأن الليلة المثقلة بالأسئلة أنجبت إشراقة شمس بخيول ذهبية تبحث عن فارس ضائع وسط متاهة، رماه

إليها القدر بلا رحمة.

يا إلهي، أي رجل هذا. لقد جاء مبتسما وبشوشا وبالأمس كان كوحش يكشر أسنانه لافتراسنا، واليوم وجه آخر ، الخبث يختبئ أحيانا وراء بياض اللبن ولا تستطيع لمس الصورة بيدك إلا بعد سقوط قطرات الدم ويتأكد لك أنه لم يكن لبنا في الأصل.

ربت على كتفي وقال لي هناك ضيعة قريبة من هنا يحتاج صاحبها إلى بعض العمال هل ترغب في الذهاب ؟.

خبئت الغضب بداخلي وخمنت أنه يلعب معي من أجل طردي من العمل، وبدأ الشك يزاحم تفكيري.

إذا رغب في طردي من سيمنعه؟. هل يختبر ولائي له؟.

جمع حوله بعض العمال وبدأ يشير إلينا واحدا واحدا أنت ستذهب ... وأنت كذلك ... إلى أن وصل دوري.

أحسست بالارتياح لأنه أعفاني من الجواب. وبالحزن لأنه أهانني سألني ولم يكترث لما سأقوله، بل لم يسمع حتى ما سأقوله.

انصرف هادئا على غير عادته، بعدما رتب كل شيء مع المسؤول عن الضيعة وهو مهاجر سينغالي.

الفصـــل الثالـــث

كانت الضيعة غير بعيدة تمشينا قليلا ونحن نجر خيبتنا، وصلنا كان الكثير من المهاجرين يعملون في الضيعة من جنسيات مختلفة. لم يكن المسؤول عن الضيعة معه خبر، تجاهل أمرنا في البداية ولكن بعدما اتصل بصاحب الضيعة أخبره بأن الأمر صحيح.

قلت في نفسي : إنهم لا يتورعون عن إهانتنا، وفكرت أنني قدت نفسي إليهم وعنادي هو من ساقني إلى كل هذه العذابات التي لا تنتهي ولن تنتهي.

استمر الوضع هنا ولكن الأمر مختلف صاحب الضيعة لا يأتي إلى هنا، تعرفت على صلاح مصري الهارب من مصر بعد ما جف الربيع العربي وبدأ العسكر يلعب على الواضح كل الألاعيب التي كان يتمرن عليها في الخفاء ويوكل أرنبا تحرق أنيابها على أسوار البلاء.

وفيلا الذي ترك قلبه معلق بعائلته في الكاميرون التي تحرقها الحروب الأهلية والفقر.

صلاح محكوم عليه بالسجن في مصر لأنه حاول أن يقول ليس من أجل هذا سقطت الأرواح ورمى الشباب بأجسادهم العارية إلى جحيم العسكر يسقونهم إلى القبور أو السجون. إنه ليس بمجرم ليدخل السجن، لم يرتكب جريمة كان فقط يدافع عن حق وجوده في بلده، طالب بالعدالة والكرامة فقط. كان يشعر بالظلم المجرمون يقتسمون الغنيمة والأبرياء في السجون أو المنفى أو تحت التراب. أما فيلا غريب أمره رغم الصراعات والحروب والمجاعة ارتباطه بأسرته لا يوصف.

نظرت إلى صلاح وكان متعب ومرهق وسألته : لا أريد أن أكون فضوليا، ولكن لماذا هربت من الجحيم إلى الجحيم؟. قبل أن يجيبني قام من مكانه ومشى خطوتين ورجع خمنت أن سؤالي أزعجه وقال : تعبت كثيرا، تعبت من الهرب طوال الوقت ، كنت أبحث عن الاستقرار.

وهل تحقق ذلك؟.

الله أعلم كم من الوقت سنقضي هنا، لدي إحساس بأن الزمن سيقتل كل الحلم.

فهمت ، وهل يمكن للإنسان أن يعيش بلا حلم؟.

لا أريد أن أكون متشائم ولكن الجواب لك.

ضحكت وأنا أشرب معه اليأس، وقلت له : مهما يكن لم يكن لنا خيار آخر. نظرت إليه وهو يتصفح الهاتف شدني الحنين والشوق إلى عائلتي ولم أستطيع مقاومته. حاولت كتمان الشوق بداخلي وفشلت ، فضحتني دموعي وبدأت أحشائي تتمزق شوقا. إقترب مني وقال : هل هناك مشكلة؟.

أخبرته لا شيء فقط اشتقت لعائلتي. هذا الشوق الذي أحمله في أحشائي يحرقني. فكر قليلا وسألني : هل ترغب في الاتصال بهم؟.

نعم، فقد حاولت من قبل ولم أتجرأ أن أطلب الهاتف من أحد. ناولني هاتفه وأحسست بقشعريرة في جسمي وخوالج الفرح ترقص على وجهي. بدأت أرتعش وكأنني سأدس المتفجرات وسط جموع الناس، العرق يتصبب من جسمي ويبلل ثيابي. منذ أكثر من سنتين لم أسمع صوت أمي،

كتبت الأرقام على شاشة الهاتف ووقفت مترددا وأصبعي على الزر.

خفق قلبي لصوت أمي، خمنت أنها حزينة جدا، وكم سيفرحها هذا. كما خمنت أنها ستلومني لوما شديدا على قساوة قلبي. بدأت الأسئلة تحرث دماغي ورميت الهاتف من يدي واستسلمت للبكاء الجاف.

وقف صلاح مندهشا ولم يفهم لماذا فعلت هذا؟. ومع ذلك اكتفى بالصمت ولم يتجرأ على سؤالي لأنه لا حظ حجم الغضب والحزن الذي يحيط بالمكان كله. ولكني أعفيته من كل الأسئلة التي قد تطوف بخلده بعدما سلمته هاتفه ومسحت دموعي وجمعت قلبي الحزين أخبرته أنني تراجعت عن الاتصال مخافة إيقاظ مواجع أمي. لست مستعدا هذه اللحظة للحديث معها. علي أن أكون قويا وجاهزا لأسئلتها. لا أريد أن تشعر بحزني ووجعي. على الأقل هي الآن تعيش قلق سؤال الغياب. لا أرغب أن أضيف عليها مواجع جديدة.

لا تعرف الأم وجودها إلا في عيون أبنائها، فكم يخفق قلبها لسماع كلمة أمي، فالحياة قاسية إذا اختفت كلمة أمي من مسامعها وجفت الألسن عن نطقها. الأم لا يملأ ضلوعها حنانا وعنفوانا إلا كلمة أمي، ذاك الحب الطاهر المرسل من قلبها وراء خطى فلذة أكبادها هو ما يملأ حياتها غبطة وسرورا.

استيقظت فاطمة الزهراء في الساعة التي تستيقظ فيها عادة يوم العيد، كان صباحا حزينا على قلبها، مر على هذا الوجع عدة أعوام ولا يزال لغز الاختفاء يزعج محيطها. كلما تذكرته إلا وطاف بخلدها هول الفاجعة.

تصفحت وجه الصباح الخالي من أحمد وانقبض قلبها واشتعلت مشاعر الحزن بداخلها واستسلمت للبكاء، وبدأت شهقاتها بصوت مرتفع توقظ مواجع لحسن الذي كان مازال مكوم في فراشه كعادته كل يوم العيد يستيقظ باكرا ويذهب إلى المسجد لصلاة الفجر وبعدها صلاة العيد وعندما يرجع إلى المنزل يتناول فطوره ويأخذ قسطا من الراحة تغفو فيها عينيه قليلا.

كانت شهقات فاطمة الزهراء ترسل خيوطها لقلب زوجها لحسن الذي كتم حزنه وقام من مكانه متحسرا وتوجه إلى زوجته التي يجلس بجانبها كل من ضحى ومراد وقبل أن يهمس لحسن بكلمة واحدة، بدأ الجيران يتوافدون على المنزل.

كانت الدموع تغسل وجهها ويدها معا موضوعتين على رأسها وهي تصرخ :

ولدي وابني الغالي ...

هل أنت ميت أم حي؟.

هل استعجلك موعد الرحيل دون أن تودعني، ودون أن تعانقني كعادتك؟.

ابني الغالي وبياض روحي ...

لم أدري ما حل بك ؟.

غيابك يوم العيد وغير العيد لغز يحيرني.

آه ولدي وجرح كبدي ...

لو كنت أدري أنك ستفعلها ، وتهجر حضني لدفنتك بين أضلعي وكبلتك بأسناني.

دخلت الأم إلى غرفة أحمد وسط الجيران الذين يحيطون بها وبدأت تقبل صورته وتشم رائحة ملابسه وانهارت باكية وهي تردد: ولدي مات ، ونساء الجيران يواسونها ويطلبنها بالصبر. أما لحسن حاول أن يغالب حزنه وخاطب زوجته لا تقلقي سيعود لك سالما.

في مساء يوم العيد كانت فاطمة الزهراء قد استسلمت لليأس، جمعت قلبها الحزين وارتمت في شرود تام تراقب طيف أحمد وهي شبه مشلولة. والغروب يرسم جنح الظلام ودون أن يخطر على بالها أن مكالمة هاتفية ستشفي قلبها الدامي من جراح الفراق. سلمتها ضحى الهاتف بعد رنات عديدة لم يعرف أحد منهم الرقم المتصل. وضعت السماعة على أذنها واخترقها صوت من وراء البحار : كيف حالك أمي؟.

خفق قلبها ونسيت أن تلومه على الغياب وقالت بكل حنان الوجود : هذا أنت ولدي ، الحمد لله أنك حي، الحمد لله أنني سمعت صوتك؟.

تمالك نفسه وقال : أنا بخير أمي، أنا بإيطاليا منذ مدة وأنا أتحين

الفرصة لأكلمك.

كيف حال أبي وضحى ومراد سلم عليهم كثيرا...

أتخيلك كل لحظة ولدي، اشتقت إليك كثيرا. نحن محزونون على اختفائك ولدي.

دعوت الله سرا وجهارا ليلا ونهارا أن ترجع إلي سالما فلذة كبدي.

سأرجع أمي قريبا، لا تقلقي.

توسدت فاطمة الزهراء الفرح بعدما أغدقت أمسية العيد شآبيب الرحمة لقلبها الممزق، وابتسمت راضية مرضية شاكرة خالقها الذي متعها بصوت ابنها أحمد. بينما أحمد أمسك بالحزن وهو يحاول أن يتصل بشامة بعد مدة من تكسير خاطرها وهي تنظف مائدة العشاء من أمسية العيد تلمست هاتفها ونجوم السماء ترسل خيوطها لقلبها رسالة جديدة من رقم مجهول : نظرت حولها وسدت باب المطبخ وراءها وهي تستعجل أمرها وقلبها ينبض : مساء الورد زهرة عشقي، وسلام عليك يا رحيق عمري. في أمسية العيد قررت أن أغسل عيون القمر لأحضن وجهك الملائكي. وبعد طول غياب قررت أن أفتح ذراعي لأضم أبهى نجمة تزين سماء ليلة العيد...

بدأت تطير من الفرح ورسمت على وجهها نشيد الأحلام، وتحسست صدرها وداعبت شعرها وغردت بكل فرح :

حسبتك نسيتني، أحصيت الأيام والدقائق والثواني وحدقت في كل الأماكن ورسمت على صخرة النهر حظي العاثر. ألفتك وأحببتك من تلك

اللحظة. منذ ما أمسكت يدي وتسلقت خوالج قلبي. وعرفت الطريق إلى كياني. وأنا أتنفس الشوق، لم أنساك ولو لحظة، ظلت صورتك مرسومة بخيالي. وكلماتك حاضرة في شرايين روحي، ونظراتك تخلخل نبضات قلبي. كل همسة من همساتي تنشد حرقة الفراق. كنت أكاد أختنق وكم اشتهيت الموت بعد ما طال غيابك. واليوم أحمد الله على رجوعك إلي.

فقد كان جوابها بردا وسلاما على قلبي، عيني لم تكن ترى غيرها ومع ذلك تركتها حزينة.

لم أستطيع فهم كيف رميت كل شيء من يدي، وأمسكت بالمجهول. كم كنت مجنونا عندما تسربت إلى أعماقي أحلام هوجاء عمياء، خاصمني كل شيء إلا العناد والطيش. تسلل العناد في جنح ظلام الليل وكنت غارق في النوم أستحلي الحلم. ولم أستيقظ إلا وراء قضبان المنفى...

غادرني الصواب في لحظة جنون، عبرت الموت حافيا على أمواج البحر، وعاريا في منفى الهلاك. سحقا لي يا ليتني سمعت كلام أبي، وحزن أمي وتوسلات شامة.

كانت تبكي دون توقف، فعلت المستحيل لتمنعني. حتى الشعر الجميل لم يشفع لها، كان الفراق صعب عليها قرأت ذلك في عينيها غير مرة وتجاهلته.

يمر علينا العيد كاليتامى بلا راع، خيرا فعلت أمي المسكينة هدأ روعها، على الأقل عائلتي تعرف أنني حي.

منذ وقت طويل وأنا أنتظر هذه اللحظة بشغف واليوم فعلتها حتى شامة ستنام سعيدة ترشق وسادتها بأحلام الفرح.

أما أنا ليست لي شهية النوم. ولكن الكثير من الأسئلة تجتاح دماغي ولا جواب. لا وضعي ولا حالتي يسمحان لي بزيارتهما يعلم الله كم كذبة أحتاج كل مرة أسمع فيها صوت أمي أنني بخير وأنني سأعود قريبا.

يحزنني هذا الوضع، ومع ذلك الصواب هو أن تعرف عائلتي. ليس مهما أن أشرح لهم كل التفاصيل، علي أن أكون حذرا من الآن. وعلي أن أخفي الوجه الآخر لأروبا حتى لا تتوجع مرتين. على رحيلي وعلى معاناتي. يكفي أنها تحملت الغياب ويعلم الله كم من ليلة لم يعرف النوم طريقه إلى عيونها الحزينة. وكم من سؤال حرث دماغها طولا وعرضا.

لست قاسيا لهذا الحد ولكن اللحظة القاسية هي من أجلت كل لقاء مفترض بعائلتي وهذا أقسى ظلم رمى به الوجود إلى مربع حياتي وأنا أنظر إلى نفسي الآن في منتهى الهزيمة.

الفصل الرابع

استيقظت على صوت الهلع المنتشر في بقع إيطاليا، ألقيت نظرة على الضيعة التي أشتغل بها ، وتبين لي أن الأمر غير عادي. غير عادي تماما لأول مرة أحس بالخطر منذ ما عبرت قوارب الموت. راودتني فكرة الهروب، لكنني أخيرا قررت أن لا أهرب. أن أصمد وأغالب... عبثا حاولت توسل الذكريات، لا وقت للتأمل، الحالة تفرض إجراءات احترازية وقطيعة تامة مع كل تهور وتأجيل كل التأويلات...

فقط عائلتي في المغرب ما تفتح لي شهية الأمل، أسندت رأسي إلى الماضي أعيد شريط نقطة الوصول إلى ايطاليا قبل سنوات قليلة.

فهمت أن القلق ليس هو مواجهة المخاطر ، بل القلق هو عجزك عن فعل شيء في سحابة المخاطر التي تحدق بك من كل جانب، والقلق الأشد فظاعة هو أن تطوي المسافات وتحرق الزمن كله وتحرث الجغرافيا برا وبحرا طولا وعرضا لملامسة اللحظة شوقا.

خمنت كثيرا في أبي رجل كبير السن وها هي الجائحة كوحش أسطوري لا يرحم كبار السن. وأمي التي لا تستطيع كبح الشوق بداخلها ومقاومة عناقي. تخيلتها سترتمي إلي وتجذبني إليها كمغناطيس حتى لو قيل لها أن الموت مرسوم على جبهتي ستقبلها لأن شوق الأمومة يحرك كل فلك الممنوع. منذ ثلاث سنوات وهي تترقب عودتي، منذ ما غادرت البلاد متسللا في ظلمة الليل والبحر، ورمى بي القدر إلى ضيعات إيطاليا في محاولة مني إثبات الذات ولو بقتلها في لحظة يأس وتصلب الزمن. مرت ثلاث سنوات وأنا بعيد عن وجه أمي ، ولا أوراق في الجيب...

يمكنك أن تتخيل اللحظة وأنت تلبي نداء إلزم بيتك أنك مع أهلك وبين أحضان عشيرتك. وتخيل كذلك أنني مهاجر بلا هوية أحترق بين نار كورنا التي تتلمس ثيابي وتساوم باب حلمي، وبين نار مشتعلة بداخلي أيهما أهون الموت غريبا، أم تكون سببا في موت من كان ينتظر منك شيء آخر. فلا أنا حققت ذاتي، ولا هذا الآخر خلصني من سؤال ما ذا يمكنني فعله الآن؟.

هل كان النحس يترصدني وأنا أحلم بعودتي إلى بلدي وسكان القرية يعزفون فرحا ويقرعون الطبول وأنا أمسح العرق المنساب على جبهتي من كثرة العناق والترحيب.

أيقظني صوت غريب إياك أن تعود للأرض التي هربت منها. اخترق الصوت جسمي كله وأدركت المعنى لا نقطة تتوسل عودتي. مشهد لا يوصف، ومع ذلك تحملت، ومشيت قليلا لعل الوجع يخفت.

قبل أيام فقط بشرتها بعودتي ، كانت مسرورة ورقصت على وهج الفرح وتقاسمت مع أبي كلماتي على الواتساب، كان ممسكا بالأمل وهو يتعقب كلماتي قبل أن ينصرف أخبرني أنني ما زلت عصفورا، والعصفور لا يحس بالدفيء إلا في عشه الأصلي. خفق قلبي لهذا الكلام ولم أتجرأ اليوم لأخبر أبي أن العصفور وقع في الشرك يستغيث ففي العودة إلى العش مغامرة و البقاء مغامرة.

قلت في نفسي لا شك أنها النهاية، استبد بي الخوف وأنا وحيد أرتعد في مدينة الموتى. خيل لي في شرود تام، أن القرية كلها تجري في

الإتجاه المعاكس الذي أسير فيه، من يتجرأ أن يلامسني أو يمد يده لي ... ماذا يعني لي هذا نفسيا. هذه الصورة تقتلني. لأن العدو الخفي نجح في عزلي، نجح في مسح الغباوة من بقع الوجود أو ربما رسمها في شكلها الجديد.

كل من يحاول أن يقترب مني أو يخالطني ليس في نظره مجرد غبي. بل هو رمي إلى التهلكة ، رمي إلى المجهول ، فأخطر ما يرعب الإنسان هو الخوف، نخاف من الوهم ومن كل شيء نشم فيه رائحة الموت.

وأنا الموت نفسه في صورتها الحالية ...

حتى شامة التي كانت تمني النفس بعودتي السريعة من أجل خطبتها كما اتفقنا. هل سترغب بمخالطتي، وهي سعيدة تغني، وترسم لوحة الخطبة وتوزعها على بنات القرية منتشية الانقضاض على بكارة الحظ على الريق. كل ما قد تفعله اليوم هو الاكتفاء بالحزن ولوم كورنا التي سرقت منها اللحظة. سينقبض قلبها وهي ترسل آخر إشعار : سامحني لا أستطيع ...

وأنا في منتهى الهزيمة لا أملك حتى الرد عليها . سألت نفسي هل كانت تستطيع لو كان الأمر مختلف؟. نعم أكيد تستطيع... يا إلهي ما قد يأتي فجأة بشكل غير متوقع قد يقلب كل مصادفات الوجود، ويعصف برغبات وأحلام وطموحات الكثير.

الحقيقة لو كنت أنا هناك، سأفعل ما أتخليه رغم مرارته، وحتى أنا هنا... يجدر بي البقاء هنا، حتى لو كنت لا أدري إن كنت أستطيع البقاء على

قيد الحياة. الموت يقطف الأرواح بكل خشونة أمامي، اختفت صورة أوربا الأمل لكل يائس في بلده. أيقنت أن صلابة اللحظة تتجاوزني، هي أعمق من الموت نفسه. ولا أدري أين المفر؟. ربما مضطر في الوقت الراهن لاختيار الأسوأ.

الكل مشغول بنفسه وكيف يخرج سالما من هول الجائحة، وكأنه يوم القيامة كل نفس بما كسبت رهينة. ها هو الحساب . العالم يدفع فاتورة الحساب والإعلام حجب عينه عن كل شيء وراح يتصيد ضحايا الوباء ويحصيه ويعده عدا.

أما أنا وأمثالي كثير في هذه الجغرافيا وما نعانيه في هذا المعمور لا نطلب إلا أبسط الحقوق وهو حق البقاء. أما حق الحياة فهو مؤجل لنبقى أولا ثم نقرر ساعتها نمط الحياة التي يرسمها لنا الكبار.

أنا مجرد مهاجر سري لا أسئلة ولا أجوبة تبارح خلدي. فقط أكتفي بالصمت وماذا يمكنني أن أفعل إذا كان التاريخ نفسه ماكر لا يفصح عن كثير من الحقائق المخبئة بين ضلوعه، فهو يملك قدرة الإخفاء أكثر من الكشف. فكم من كذبة عفنة صدقناها وتحمسنا لمعانقة ملاحمها الوهمية .

أنا لا أشك وبما أنني لا أشك. إنه من البديهي لا يقين مطلق. هذا هو الأمر المؤكد الذي لا أستطيع الشك فيه. ماذا يخسر التاريخ إذا صرخ جهرا بكل الأسرار المحشوة بداخله ؟.

ماذا يكون هذا الوباء ؟.

هل هو حشرة ؟. أم هو شيء خفي كعفريت يتسلل بين الناس ويخنق أنفاسهم؟.

تاهت الأجوبة واختلفت في ذهني حسب اختلاف القراءات التي

تصلني من كل جانب. وتفاوتت مراتب الجواب بين خفاش وابتلاء ومؤامرة وكل هذه الأجوبة لم تقنعني مطلقا... مهما يكن فالفاعل مجرم ولا أشك مطلقا في مرتبك الجريمة. ولي اليقين المطلق أن الله ليس مجرما وهو يقين لا يساورني فيه مثقال ذرة من الشك. فأن يكون الله مجرم ويعاقب عباده هذا العقاب الأليم. معنى ذلك أن موسم الحساب والعقاب غير منتظر في فلك الموت.

أحيانا يشدني الرعب أمام هذه التفسيرات المفزعة وأقول لنفسي قطعا ليس الله مجرم ولكن الله يبتلينا بنقص من الأموال والأولاد وغيرها من الابتلاءات.

أكاد أصعق من كثرة الأسئلة التي تجتاح مخيلتي هذه اللحظة والضجيج الذي يلون السماء بالتفسيرات ويرسم غيمة قاتمة على عيني، ومع ذلك لا أشك في أن الفاعل آدمي خبيث في فعله.

لقد انتهى زمن الخير، عندنا علم ولكن لا خير فيه. هذه هي المصيبة المخبئة بين تفاصيل الحكاية. ولم نتعلم بعد من دروس التاريخ، إن كانت له دروس وعبر فبالأمس القريب كانت بعض المعامل تنتج طينة غريبة من الجنس البشري وتدسها في المعمور لتحدث الرعب والخوف. وكانت التبريرات جاهزة ، والنص الديني هو الملام كل القراءات ذهبت للنص وكان النبش في التراث غريبا. والكل خائف ولا يعرف ماذا يجري في العالم، لعبة معي أو ضدي كانت ماكرة بكل المقاييس، زهقت الأرواح واختفت وراء الشمس الكثير من النفوس، وسجنت وعذبت الكثير من

الإرادات وأجهضت الكثير من المشاريع والأفكار والأحلام.

لقيت تجارة العبث رواجا كبيرا، وتم تطويع الكثير من الأفواه رغما عنها، هي نفسها المعامل التي تطل علينا كل مرة بخديعة مرسومة بدقة متناهية ولكن هذه المرة الأمر مختلف، مختلف تماما قد تكون اللعبة انفلتت من الأيدي وانقلب السحر على الساحر، وقد يكون الأمر في غاية الدقة هو متحكم فيه تماما ويتجه نحو الهدف المرسوم.

ولرفع الشك فلا حرج أن يضحي الكبار بالكثير من الأرواح مادامت هذه الأرواح يتم تصنيفها حسب درجة النفع.

الأمور ليست كما نراها دائما وصوت الحقيقة يختفي وراء معالم مرسومة بدقة وغالبا ما نفشل في اختراق هذه المعالم. وعندما يختفي صوت الحقيقة تغيب معه الكثير من الأمور. وغالبا ما نقرأ ما هو مكتوب ولا نفكر بالمطلق في الأمور المفترض كتابتها. وحتى ما هو مكتوب قد يكتب بالسم وليس بحروف متفق عليها. والعيون لا تستطيع الحفر في الكلمات المخبئة في المنفى قصدا.

الشيء المؤلم بالنسبة لي هل تستطيع عطسة أن تدمر ما بناه الإنسان عبر تاريخ طويل من الكفاح والإنجازات العلمية العظيمة. نهاية الوجود بعطسة أمر غير ممكن مطلقا فالنهاية الحتمية بالنفخ في الصور وضرب حافر دابة. لكن العطسة كانت بداية الوجود ومعها انطلقت حركة الوجود، هي أول حركة قام بها آدم عليه السلام أبو البشرية. هذه العطسة ستخرج معها أول كلمة في المعمور الحمد لله رب العالمين. لترد الملائكة

رحمك اللّه. ومنذ ذاك الحين والعطسة تلازم الإنسان حتى فرضها الإسلام من حق المسلم على أخيه المسلم إذا عطس فحمد اللّه فشمته. فكيف انقلب كل هذا إلى علامة شؤم؟. وكل عاطس نفر منه وكأن الموت ينفث من لعابه.

استشعر أحمد بالعبث في هذا الوجود، منذ ما كان في قريته، منذ ذاك الزمان وكل شيء يتبدى له بشكل مختلف. وهل أتى إلى هنا وقطع كل هذه المخاطر سرا وواجه الموت بشجاعة في البحر والتسول على أعتاب هامش ايطاليا خوفا من أن تترصده عيون شرطة البلد وتعيده لنقطة الصفر قبل أن يحصل بشق الأنفس على عمل في إحدى الضيعات الفلاحية؟.

هل كل هذا لمواجهة مواقف أشد غرابة في منطقها ؟.

فقد أحس بغبن اللحظة وهو يردد في نفسه: إني لا أكره شيء أكثر من كره نفسي في هذه اللحظة. فإذا خرجت سالما بوسعي أن أفعل الكثير. إنني لا أستطيع فعل شيء. أنا مجرد مفعول به في هذه اللحظة. ألم أقل لكم التاريخ ماكر ، لا يمكنني أن ألوم نفسي . اللوم كله على التاريخ. هكذا يفعل الفاشلون مثلي يرمي كل خيباته على التاريخ ويرتاح.

وهل حقا أنا مرتاح ؟.

يخيل لي ليس كذلك . ولكن التاريخ في النهاية مجرد أحداث لفاعل ما. وهذا الفاعل يملك القرار بين التدوين والكشف، أو الإخفاء والطمس.

هكذا يبدوا لي الأمر كلنا ضحايا أنا والتاريخ معا. لكن هناك فرق

بيننا أنا ضحية الفاعل والتاريخ معا، أنا الحلقة الأضعف فالفاعل يسجل حدثه ببراعة، وليس كل تدوين كشف للحدث فقد يكون التدوين هو طمس للحدث وإبعاد الآثار عنه.

قلت سابقا أنني لا أشك أنا مجرد مهاجر سري، والشك جريمة، أنا على يقين تام بأن الجريمة الحقيقية ليست الشك بل ما يمارس علينا الآن من عدوان. أنا لا أسمع إلا ثلاث كلمات كورنا والصين وأمريكا فكيف أشك إذن والواقع أثبت أن الفيروس ينتشر بين البشر انتشارا من الصعب توقيفه. لكن المنطق يقول من نشره في أول شخص قبل أن تهب الرياح وتزرعه في كل جغرافية الأرض؟.

بقي أحمد جالسا في مكانه يراقب المشهد عن قرب والموت يحصد عجائز أوربا ويصفي الماء من بعض البقع السوداء في مناطق أخرى. والبراءة تتلوث في مختبرات العلم.

هو إنسان عربي أولا ومهاجر سري ثانيا هاجمته الكثير من الأسئلة وبالأسئلة يحيى الإنسان ويعيش.

وفي هذه اللحظة الوجودية العصيبة كان أحمد مثل طائر جريح يصرخ:

ها أنا حائر بين الثلاثة كورنا والصين وأمريكا، أيهما أقرب للبلوى.

لا تستعجل الحكم أؤكد لك أنك أنت وحدك تقرأ بصوت خجول الصمت المطبق...

وهل كل هذا الضجيج مجرد صمت؟.

لم أتوقع من كورنا أن تكتب التاريخ بطريقتها الخاصة وتفرض قوانينها بكل قسوة. ربما هذا سيدفع الكثير إلى مراجعة أوراقه، هي أزمة نمو إذن، هي وعي ويقظة، هي تخطي لمرحلة وكل هذا يساهم في التطور الإنساني حتى لو كان مكلفا. ولكن هناك شيء غامض هو أن الشك مرفوض لأنه يقوض مجهود الدول وينسف قوتها في مواجهة الجائحة.

آه وصلنا إلى بيت القصيد وهي الفرصة التي يتحين لها الكثير لإشهار سيفه لتصفية الماء بالدم. وقد يكون باردا ولكنني قلت مرات عديدة أنني لا أشك. أنا مجرد مهاجر سري لا حول ولا قوة له. مصائبه فوق الشك، ولكنه بشكل يقيني يتأكد لي أن الكذبة التي صدقناها بكل غباوة. هي أن التاريخ تطور لأحداث الإنسان.

فالتاريخ هو تأريخ لفشل كشف الحقائق.

هو تدوين للزيف.

هو فقط كشف لفناء الحدث وإعدامه في المهد.

والكذبة الثانية هي أن التدوين إحياء للماضي، ليس كل تدوين حياة لفعل ميت، بل هو قتل الحي. طمس الحاضر .

فالتاريخ بهذا المعنى ليس فقط قابل للارتشاء، بل قابل للانتحار. ينتحر من أجل رسم محطات مزيفة على جغرافية الوجود، ويستقل ويترك الشاهد حائرا بعدما يخطف كل الأدلة من بين يديه كساحر مخادع.

الوجود الإنساني على عتبة الفناء، لا أحد يتوقع متى تنتهي الحرب ويرحل الخوف. لا أحد يملك تفسيرا مقنعا لما يحدث ، كل واحد يحرث القصة بما تشتهيه نفسه أو بما تراوده مصالحه. والأغلبية الساحقة مرعوبة تحركها القرارات كما تحرك الرياح الأغصان.

أمام هذه البلوى وقف الجميع مصعوقا، العلم نفض ضلوعه والخبرة الإنسانية كشفت ضعفها والساسة يقودون البشرية إلى الهلاك وحدها كورنا تعبث بالجميع ولا جرأة تتسكع في غسق الليل تشنق الخوف الرهيب، وتخلص البشرية من عتبة الفناء. الفناء على الأبواب والقلوب تطلب النجدة.

من الذي رسم تلك الصورة الفاتنة في عقولنا عن أوربا ؟. أوربا الحلم، أوربا الخلاص، حقوق الإنسان ، العدالة الاجتماعية، الكرامة الإنسانية . احترام حقوق العمال ... هل هذه الأرض خارج بقعة أوربا؟. هل نحن في غابة نحتكم لقانون الطبيعة ؟. لا أرى صورة من صور الإنسانية تتجول بالمكان فقط المافيا تعبث بالمهاجرين كالعبيد.

هل أوربا تنكرت للقيم الإنسانية؟. أم هناك فرق بين البشر الحقوق لأبناء أوربا فقط. العقلية الاستعمارية الفاشية رفضت أن تنسلخ عن جسم أوربا. مهما صرخت النظريات الفلسفية في الهواء، يبقى التطبيق على أرض الواقع يفضح النوايا.

لكن هيهات كيف لمهاجر سري مثلي لا يشك أن يتسرع في إصدار

الأحكام؟. كم هو عجيب أن نستحضر ديكارت ولا نشك. وكم هو غريب أن نصدق بأن أوربا وأمريكا بعظمتها وجلالة قدرها وقفت عاجزة أمام اكتساح الوباء لبنيانها واقتحام خلوة الناس في بيوتهم.

الحزن يقرع مضجعي وأنا أتوسد الغربة يعلم الله حال أمي الآن. كانت تعاني من صداع الرأس أما الآن قد يتناهى لها كل ما تتناقله وسائل الإعلام التي جعلت من ايطاليا سماء رمادية اللون، وكورنا تعشق الرماد، تخيلت صوتها يجتاح كياني وهي تنعي رحيل غريبها البكر، وثارة يخيل لي أنها متضرعة إلى السماء تتصفح وجه الصفاء الرباني وهي تتألم من تلوث الكون بالرماد. ولم أفهم علاقة الرماد بكورنا ولا السماء الرمادية بإيطاليا كل التفسيرات لا تعنيني الآن.

أنا يهمني دعاء أمي.

في بلدي انقسم الناس بين مهلل ومتظاهر ضد كورنا وبين معلق شماعة فشل كورنا بالمساجد ورجال الدين.

وكلا الفريقين لا يعنيني في شيء الآن،

أنا محب لوطني حتى وان كنت على الهامش داخله، ولا شيء خارجه.

أنا مجرد مهاجر سري تنكرت له كل القيم الكونية وتركته يواجه الطاحونة بما يملك من حيل للبقاء.

وهو يمسح دموع الغربة والوحدة إتكأ على جدار الحلم المغلف

بأسلاك المنفى ردد في همس : كم حزينا أن تكون وحيدا، ولا شيء يهز كيانك.

لم أفهم تفاصيل التهليل في بلدي هل هو فعل عفوي بكل براءة لمن يبحث عن أجوبة لأسئلة مشروعة، وعندما تخطفه الحيرة ويتلقفه الغموض يتشبث بكل حبل النجاة والتهليل يسكن عمق وجدان الكثير من البسطاء بأنه هو سبيل الخلاص لكثير من البلايا. وهنا لا نلوم الناس على السلوك بل علينا البحث عن آلاف الأعذار ولوم المنظومة التي تركتهم خارج وعي اللحظة؟.

وهل هو فعل متعمد ومقصود لبعض من يفسر ويفهم الدين حسب تأويل زعمه ويرمي الناس عمدا لهذا، لغاية في نفسه وهنا كذلك يبقى السؤال معلقا: هذه الطفيليات التي تنبت في جسم المجتمع من سمح لها بالبقاء؟. هي ليست كيانات لها أنماط العيش مقتنعة بها وتختار هذا النمط بمنتهى الاحترام لأنماط عيش الآخرين. بل هي نزيف يرهق كل سبل الوضوح. وهنا وجب قراءة ذلك بوعي تام. هذه النبتة من يرعاها ويحميها ويدس فيها كل سبل الحياة بل ويمكنها ويفتح لها المجال للخروج بين الحين والحين ويبقى التساؤل حساسا حول الألوان التي تختبأ وراءها؟.

وهل كل هذا من الطرف النقيض ليرسم صورة سوداء ويعلق الشماعة على الإسلام في كل فشل يلاحقه ويبحث عن تبرير للنيل منه، ويشمر على تكشير أنيابه ليس لهدم هذه الكيانات لأنه يعي جيدا وجودها غير بريء، ومن أوجدها فهو قادر على حمايتها. بل للهروب إلى أبعد

المسافات إلى حيث تسكن أكثر من أربعة عشر قرنا والنبش في النصوص والمأثورات وقراءتها بالسواد وتسليط اللوم عليها. فهي السبب في كل البلوى وما يقول عاقل بهذا. وهنا كذلك علينا أن نقف وقفة تأمل ونسأل : كيف لا يوجد لهؤلاء عقل يميزون به أن المقارنة لا تصح بين ما لا يمكن المقارنة به. ولا يمكن الإلتهاء بعيوب الغير لتبرير الفشل.

جميع نوافذ العقل الآن مغلقة والشغل الشاغل هو تهديم الكيانات المزعومة. أما أنا كياني أصلا مهزوم ومهدم تماما ليس فقط كوني مهاجر سري يواجه مصيره وحده؟. بل أحس أنه على عاتقي مسؤولية كبيرة أنا محاصر هنا والعالم محاصر كل في بيته. لكسر سلسلة انتشار هذا الوباء ومع ذلك الفيروس لا يستشيرهم ينتشر بالطريقة التي يرغبها ويريدها دون أن يعلم أحد من أين أتى للقضاء عليه؟. ولكن الصيحات الخارجة من الأفواه في كل بقاع العالم تردد:

إلزم بيتك

ومن لا بيت له؟.

إلزم بيتك

ومن لا قوت ساعة له؟.

إلزم بيتك

ومن لا هوية له؟.

إلزم بيتك، حماية لك ولأهلك. وحماية لباقي الناس من حولك.

كل مرة يطل على وسائل الإعلام ناصح أمين يخبر الناس بأن الضمانة الوحيدة لعدم انتشار الوباء هو البقاء في المنازل، وعدم الاختلاط،

ضرورة التقيد بالقواعد الصارمة لنجنب البشرية كوارث:

ممنوع المصافحة،

غسل اليدين بالماء والصابون ،

استعمال المعقمات والكمامات وغيرها من وسائل الوقاية.

خطابات ومنشورات من هنا وهناك. كل دولة تتخذ قرارات احترازية واحتياطية. سد الحدود وإغلاق المطارات، حالة الطوارق وقيود تفرض على خروج المواطنين إلا للضرورة.

لا يخلو مكان بدون منشورات عن كورونا وعن طرق وسبل الوقاية منها.

شوارع فارغة، مقاهي مغلقة ومساجد مقفلة، العالم حائر يبحث عن الخلاص للجنس البشري. الجميع في عزلة، الجميع يدرك أنه غير معفى من الوباء. الجميع يتقفى خطى الوباء دون جدوى، والوباء ينتشر بشكل خفي، يسافر عبر القارات بدون بطاقة عبور ولا جواز سفر. ألغى كل قوانين المعمور وأرسى قوانينه وقواعده... الكثير يعتقد أن أنماط العيش ستتغير بعد حالة الطوارئ.

طرحت أسئلة كثيرة حول عجز العلم على وقف النزيف، وطرحت أسئلة كثيرة كذلك حول الضحايا المستهدفون، عن تجارة السلاح، عن

العلاقات الدولية ولكن لا جوابا شافيا أطل على الهدوء. الكل يسير في حقل الألغام ولا ضمانة تكفل له البقاء. خريطة جديدة تطبخ في الخفاء وبعض سيناريوهاتها تتسرب في الأفق .

نهاية عام 2019 كانت شؤم على البشرية يعلم الله بماذا حبلت لتقذف في الوجود الإنساني كل هذا العناء والرعب والخوف. ووهان الصينية، دخلت التاريخ من الباب الأسود ، الدخان الأسود لم يتوقف في سماء ووهان ولا فوق أرض الصين ، فقد كانت الرياح أسرع من المتوقع وانتشر السواد في كل بقاع العالم ولم تسلم جغرافية في الوجود الإنساني من هذا البلاء.

العالم في كف يد عفريت وأنه قاب قوسين أو أدنى من الفناء. الكل يفتح الصباح على عتبة الفناء ويراوغ النهار متوسلا أن لا يصادف الموت في طريقه. أما المساء تلك حكاية أخرى ينطلق العد العكسي لإحصاء الخسائر تتسمر العيون على القنوات ولا ترى إلا خبرا واحدا يتنقل في المعمور كم عدد القتلى؟. كم عدد المصابين ؟.

ما هي مسافة البعد والقرب من الموت ؟. لا شيء في أية لحظة يشنقك الفيروس ويرمي بك إلى المجهول. لا ينفع سؤال ؟. ولا طريق للبحث عن جواب فقط غريزة البقاء من تحرك الوجود ... لا معنى للمعنى نفسه الآن ، كل شيء توقف ، كل الأحكام مؤجلة، وحدها كورنا تفتك وتعبث وترهب وتخطف الأرواح ...

وحش متمرد على القوانين والأعراف يحل بالبشرية لوى عنق

الوجود الإنساني فانقادت إليه البشرية من طاعة يفتل بها القرارات كما تشتهي مصالح البعض بكل رعونة الوجود.

لكن اللحظة التي كان فيها الفيروس يقف في ووهان منتصبا كما نصبته الآلة الخفية يحصد الأرواح ويستعد لركوب كل فضاءات المعمور كان العالم غير مبالي بين مستهزئ ومستبعد أن يتعدى خطوط الصين خصوصا عندما منعت كل الرحلات إلى الصين. وطوقت الصين الجائحة بتطبيق قوانين صارمة وحتى أكثر المتشائمين لم يكن يتوقع إحداث خسارة في الجسم البشري بهذا الحجم، وإن كان البعض يرى : أن كل هذا مجرد صراع بين الربح والخسارة يتمرن عليه المعمور وإلى أين تميل الكفة ذاك ما سيكشف عنه الواقع متأخرا.

الفصل الخامس

توقف الزمن، شروق الشمس مثل غروبها، ولم يعد العالم في حاجة إلى سجان ولا إلى سجون الكل مسجون، تعطلت نسائم الصباح ورقص الملل على القلوب، العالم يطل من ثقب إبرة، وماذا عسى لثقبة الإبرة أن تتسع لعالم كان بالأمس يصول ويجول في ملكوت المعمور ينشد أغنية الحياة.

من جمع كل هذا الشتات وساقه إلى مقصلة الاختباء. ورمى بزحمة الشوارع إلى فراغ موحش لا حركات تترجل في الطرقات ولا دخان السيارات ينفث في الأفق. كست وجه الشيخ شحوب فتراه ساهما خشية من لعنة تصادفه على حافة السؤال. وقد لا يتاح له المجال ليسأل بأي ذنب تفتري عليه الأحوال ؟. ويتأسف لخيانة العمر ولغدر الزمان، ويحز في نفسه أن يكون الهلاك رجما ورميا ... ينظر إلى أقرب أقربائه ويراه و اهما منه أكثر من المقصلة. ويسلم رقبته حزينا على القلوب التي لا تسعه ولم تعد تطيقه ولسان حاله لا يقول كما تدين تدان، بل لو تعلمون ما بداخلي لكان شيء آخر. أو ربما لو كان الخجل يتجول على منصة اللحظة، كان الوجود سيرسم لوحة مخالفة تماما لما يريد البعض أن يغطي بها تهور الأوغاد.

أنا لست مسؤولا عن المتاهة، وغير معني بالضجيج ولكن الجروح المسجلة في جسم البشرية مكلفة جدا، قد تغطي عنها لحظيا أشكال التضامن والتآزر، وقد تعمل بعض التدخلات من منع النزيف. ولكن علينا أن لا ننسى الجروح العميقة لا يكفي معها كمادات التهدئة، أو مسكنات لحظية، قد تطل في أية لحظة وتكون إطلالتها مؤلمة ومكلفة ومع ذلك

الجميع يكتفي بالصمت ويتعمد طمس الجروح، لا سؤال يفصح، ولا سؤال يتجول، ولا سؤال يطرق الأبواب ... هناك حجر صحي مفهوم ومرغوب ومطلوب في اللحظة هاته، ولكن الحجر الفكري وحجر جميع الأسئلة هي اللعنة المؤجلة، سيخبرنا التاريخ بكل شيء.

سيخبرنا أن الخفاش بريء.

سيخبرنا أن اللّه ليس مجرما.

سيخبرنا أن الجريمة ماكرة.

سيخبرنا أن بني آدم ضعيف جدا.

سيخبرنا أن أوربا ليست متهورة ولا عاجزة.

سيخبرنا أن الغاية تبرر الوسيلة.

سيخبرنا أن العلم لم يقف عاجزا.

سيخبرنا أن العالم رهين الشركات الكبرى.

سيخبرنا أن المختبرات العلمية في يد كف عفريت.

وهذا العفريت قد يحرق البشرية بضربة طيش.

سيخبرنا أن الضجيج واللغط ظاهرة بشرية.

سيخبرنا أن الخوف والرعب أكثر فتكا من كل شيء.

سيخبرنا أن القلوب الضعيفة تتصيد الفرص.

سيخبرنا أن القلوب المريضة تنبش في الوساخة.

سيخبرنا أن قلوب الحاقدين تصفي حساباتها وقت الشدة.

سيخبرنا أن الجهل هي المصيبة العظمى للبشرية جمعاء.

سيخبرنا أن التفاهة هي العملة الأكثر رواجا.

سيخبرنا عن حياة الزيف.

وعن هروب الناس من عالم الواقع إلى عالم الافتراض. هروبا غريبا أكثر من هروب الشاعر الرومانسي إلى عالم الغاب. هي ليست فقط استسلام للهزيمة. بل صناعة بطولات مزيفة، في عالم الافتراض أو الحائط الأزرق كل صنوف التنديد والشجب لسلوكيات الواقع. صرخات دخانها يرشق السماء وواقع غارق في صمت قاتل. وما بينهما سوى كلمات مفتولة على جناح الحرية. حرية أن تقول ما تشاء هي مساحة القول وليس الفعل، بمجرد رسم إشاعة على الحائط بلون أسود تنطلق السهام مصوبة قذائفها بلا رحمة ودون سابق إنذار، ودون تأكد، ودون عناء سؤال، ودون أن يفهم الموضوع أصلا. هي هكذا العوالم الافتراضية تسرق الأحكام، والقيم وعالم المثل المسجى على بساطه. لو حدث ثقب وسالت كل تلك المداد من الحائط الأزرق وتحولت تلك الكلمات إلى أفعال، ربما يتحول الواقع إلى جنة الفردوس الموعود بها المؤمنين .

وسيخبرنا ... ويخبرنا...

... ويخبرنا...

بأن كلب واحد ينبح لشبح وآلاف الكلاب تنبح لنباحه.

ويخبرنا بأن الصراخ حليف النزق.

وأخيرا عجز التاريخ عن إخبارنا لأن كل الأفواه تم تكميمها، وتكميم الأفواه يعني الصمت، والصمت يعني الرضى والقبول .

عن أي شيء سيخبرنا التاريخ والأفواه مكممة؟.

عن أي شيء سيخبرنا التاريخ والكل غارق في الصمت؟.

عن أي شيء سيخبرنا التاريخ والضعف سرق كل مفاتيح القوة.

أنا الآن في خطر، الموت يقترب مني شيئا فشيئا، طوفان من المصابين كل يوم في بيرغامو الواقعة بإقليم لومبارديا. لا حديث في وسائل الإعلام عبر العالم إلا عن هذه البقعة الجغرافية عجيب أمر هذا الوباء يتحدى أرقى منطقة في العالم معروفة بجودة الخدمات الصحية. هذا كاف لأشك في نفسي، والشك هنا مختلف تمام عما سواه، الشك في قدرتي على مواجهة الرعب في هذه البقعة المنسية، إنني الآن أسير الخوف والرعب، أنا لا أريد أن أموت، أريد أن أعيش، أريد أن أعيش حتى تزول هذه المرارة من قلبي، مرارة الغياب ، أريد أن أعيش حتى تعطف علي الأيام بحنانها وتسقيني رضى أمي وأنا أعانق تلابيب شوقها، أريد أن أعيش حتى ينعم العصفور بدفء عش الأبوة، وجناح الأخوة. أريد أن أعيش حتى تمسك يدي يد شامة وهي مرصعة بالبياض يوم زفافنا، أريد أن أعيش حتى أتصالح مع ذاتي وأفضح الوجه الآخر المخبئ في جحر أوربا المليء بالنفاق.

وأنا أرتجف من الخوف عند سماعي انتشار عدد المصابين في كل بقاع العالم، وايطاليا أصبحت بؤرة الوباء. سمعت صوتا يناديني من الأعماق :

أيها الخائف من الموت تشجع، واركب قافلة النسيان...

أيها الغريب إفتح صدرك للعيان، فأنت تشبه كل الناس في خوفك، وركضك من الموت، ارقص حبا للحياة، وابتسم للأيام الباقيات...

أيها الهارب من المتاهة ها هو الجلاد يتربص بك، ليسجن قواك فما أنت فاعل...؟.

أيها الساكن بستان الحياة، لا تقلق، لا تخاف، قصتك أكبر من أن يسجنك وباء...

شعرت بنوع من الدفء وتشجعت قليلا وأنا أتأمل الوجود الذي يعبث به الوباء مزمجرا كوحش مهددا الجنس البشري.

سكن القلق كل القلوب، غط الخوف كل الزوايا. سحق الضجيج كل أماكن الهدوء...

لم أحتفل بيوم عيد ميلادي للمرة الثالثة على التوالي، ولم أرسم بسمة بيضاء على صفحة الصباح منذ ما كبل الوجود حلمي...

لم أراوغ مذكرة الليلة الظلماء لتمسح الغشاوة والعتمة من صنبور الضياع. وقفت وحيدا فقط أكتب خرافة العبور من الضياع إلى الضياع. وكانت تذكرة الجحيم جاهزة منذ ما صحى الحلم على الفراغ وأيقظ الحماس كل الطيش..

ها أنا مثل سمكة في مقلاة صياد، غارق في المنفى، تائه في الضياع، تحرقني المسافات بين الممنوع والمرغوب. الغربة قاسية والجائحة مرعبة وأنا أداوي جرحي بقطعة موسيقية صامتة.

قطعة موسيقية أمسكت بدواخلي وأخرجت المسكوت عنه، أرغمتني على البوح، خاطبت كل الجوانب المخبئة في ضلوعي. وكأن كل الحزن المخبئ بين ضلوعي كان يتحين الفرصة للتمرد، ربما استطاعت هذه القطعة الموسيقية الصامتة أن تذيب الشحم الملتوي على الحزن.

لقد أغرقتني في الماضي والحاضر، قالت لي الحزن كما الفرح. كل شيء غامض كغموض المعنى. المعنى الذي نطقت به هذه القطعة الصامتة .

اكتشفت أخيرا أنني الصامت وهي الناطقة بكل شيء رغما عني، لقد حفرت في سواقي المستور وينابيع المسكوت ... ربما الوجع المنسي بين تفاصيل الغربة، أججته رعونة اللحظة.

وأنا أطيل السمع خيل لي أنها تنهش شعيرات كياني، أنها أرغمتني على مغادرة مدرج الصمت. موجع جدا أن توقظني النغمات على وهج الوباء وأنا مجرد مهاجر سري منسي بين ضلوع الحياة.

ثلاث سنوات مرغت كياني في الوجع ، ثلاث سنوات كافية لضياع الحلم، ولكنها غير كافية للانفلات من قبضة الجائحة التي أرخت سدولها على الوجود.

ثلاث سنوات وأنا أحترف الإهانة، ثلاث سنوات ووجه أمي وأبي يحرثان عروق جسمي، ثلاث سنوات وقلبي يحترق على الذين غادرتهم دون أن أمنحهم فرصة السؤال .

كان يوما غادرا لما حزمت الطيش وترجلت المجهول وغادرت القرية في خفية عن الجميع...

كانت الأصوات تناديني من الداخل لا تفعلها أحمد وترحل ولم أسمع إلا صوت الطيش .

هل تعرف ما معنى أن تكون مهاجرا سريا بإيطاليا؟.

هذا يعني أنك مهدد بالعقوبة أو الموت في حالة المرض وغيره...

قبل مجيئي إلى هنا كانت لي صورة مغايرة تماما عن أوربا، كنت أعتقد هي جنة مفقودة لأبناء الفقراء، وبمجرد أن تنزل عليها تستقبلك الأحلام وتتفتح لك الأماني، كم كنا نردد التعليم مجانا، العلاج في أوروبا ميسر للجميع لا أشك في ذلك.

الأمر مختلف تماما عندما تكون مهاجرا سريا لا أوراق ثبوتية لك. لكن ليس من يسمع كمن يرى ويعيش، ومن أراد أن يجرب ما معنى أن تكون مهاجرا سريا فليرميه القدر إلى هنا، إلى حيث يسكن القلق ولا صورة من صور الحلم المعلق في جبين المغرر بهم مثلي.

عدت إلى ضيعتي الموحشة ولم يكن هناك سوى قليل من العمال من السينغال والكاميرون والنيجر وصلاح مصري الجنسية الذي يملك إحساسا بأن الزمن خانه وخان المصريين والعرب عموما.

تقع الضيعة التي أشتغل بها في الجزء الجنوبي من جزيرة صقلية، وتعود ملكيتها إلى رجل أعمال إيطالي مشهور سيرجينيو. متهم بصلاته بالمافيا التي تنشط بشكل كبير في هذه المناطق وتسيطر على جزء مهم من وسائل الإنتاج هنا.. وأغلب العاملين غير مصرح بهم. يعملون في السوق السوداء.

وبينما نحن ندردش ونكسر القلق المنساب إلى دواخلنا الذي

أحدثته جائحة كورونا ببعض حكايات الطفولة لكل واحد منا. جاء سيرجينيو رفقة بعض الشباب لم نراهم من قبل. وقال الضائقة التي تمر بها إيطاليا وأوروبا بل والعالم قد تحرق الأخضر واليابس.

رد عليه صلاح بقوله : لا أعرف شيئا عن الجائحة لكني مررت من أصعب منها. آه ما أقصى أن تدوسك الدبابات والخيول بكل قسوة...

نظر إليه سيرجينيو مطمئنا لا تغضب لن أرسلك إلى بلدك، قانونيا لا يمكنكم البقاء هنا ولكن لأسباب إنسانية ستبقون معي أنتم تعرفون الوضع الآن وايطاليا منذ زمن طويل وهي تستقبل الآلاف من المهاجرين من تونس وسوريا ومختلف الدول الإفريقية وهؤلاء لا يرغبون في العودة إلى بلدانهم رغم الظروف القاسية التي يعيشون فيها هنا. وهذا شيء مؤلم، مؤلم جدا. كل دولة في العالم لها امكانية الاستقبال محدودة...

صمت قليلا ثم تابع وهو يوزع نظراته علينا : هذا الوضع تصنعه بلدانكم وترميكم إلى هنا نحن نقوم بواجبنا الإنساني. أعرف أن ما نقوم به خارج القانون ولكن القانون أحيانا يكون قاسيا ورجل الدولة مطالب بتغليب كفة القانون واحترامه فهو مسؤول على ذلك. أما أنا مطالب باحترامه في الحدود الدنيا فأنا إنسان متحرر من بعض القيود هكذا تسمح لي بالتملص من القانون لحمايتكم وهو شعور نبيل بما في ذلك من تجاوزات أعي جيدا هذا.

ولكن إذا خيرتكم بين هذا الوضع الذي تنقصه بعض الشروط والظروف الملائمة للعمل، وبين الرجوع لبلدانكم أكيد ستختارون الأول.

كمرحلة أولى ثم تنته المشكلة وتحصل عملية الدمج. تحصلون على النقود مقابل عملكم وهذا مهم جدا.

أنتم هنا من أجل المال أليس كذلك وأدار وجهه إلي مبتسما واكتفيت بهز رأسي موحي له بالقبول في آخر المطاف كلامه صحيح. وماذا بوسعي أن أفعل هل أقول له إن لم تصمت ، سأقول لهم أنت الذي نشرت الوباء؟.

ماذا بوسعي أن أفعل؟.

أنا مجرد مهاجر سري لا يشك. قبل أعوام كان الإرهاب مثل حبل ملفوف على الرقاب وكل من أبان عن روح التمرد، كان الحكم جاهزا. ولكن اليوم لحظة أشد خطورة لا يتعلق الأمر بمحاكمة خارج شروط القانون. فالأسوأ آتي لا محالة هناك غرباء في هذا العالم لا حق لهم في البوح...

هي حكاية خاصة، حكاية صعبة جدا تعد لها الأجيال ألف حساب، لا تترك لك مساحة التفكير أو تستريح بعض الوقت ثم تواصل المسير عليك المكابدة لإستباق ضرباتها أو تكون جاهز لكل شيء. وجاهزيتك لا يعني أنك ستحسم المعركة لصالحك ، اللحظة تتخبط بشكل خفي كعفاريت سليمان.

الكبير والصغير يلوم اللحظة لأن الذي رمى العالم إلى مربع السباق يعي جيدا جاهزية العالم وتحمله للضربات وصموده في وجه العواصف.

الأغلبية الساحقة استفاقت على قرارات ارتجالية لأن كل تأجيل مع ما يحمله من خطورة يعني فتح الباب للمجهول وهو أمر غير مطاق.

أخبرنا سيرجينيو أنه سيسافر إلى بعض الدول الإفريقية لبضعة أيام. خمنت كثيرا قبل أن أتراجع على مهاجمته، ولكن فيلا الذي كان دائما يقول لنا اسمه محارب وأن أمه إختارت له هذا الإسم ليحارب المخاوف في الكاميرون.

هو بحق محارب شجعان قال له أوربا بجلالة قدرها تفر بجلدها إلى صحراء إفريقيا حتى الأفاعي لا تجد ما تنفث فيه سمها...

لم يبالي سيرجينيو بكلا مه واكتفى بابتسامة ماكرة وانصرف.

صرخ صلاح لا عليك سيرجع كل الحدود مقفلة. نظرت إليه بعين الشفقة وقلت له الحدود مقفلة في وجهنا وفي وجه الضعفاء مثلنا، أما هؤلاء يعرفون كيف يدبرون أمرهم ولكن ليس هذا مهما. المهم لماذا الإعلام لا يرسل خيوطه لتتبع آثار هؤلاء عوض الاكتفاء بإحصاء عدد ضحايا كورنا ؟.

إنها جريمة إنسانية في حق سكان لا يملكون قوت يومهم فكيف سيواجهون جائحة كعفريت مرعب. هذا الهروب المفزع إلى صحاري إفريقيا يرمي القارة بكاملها الى الجحيم فهمت اليوم قصد سارتر الجحيم هم الآخرون.

فهمت قساوة الجلاد.

أعتقد أن كورنا هي الذئب وأنا يوسف والجلاد خفاش آدمي وهكذا

يتخلص مني الجلاد.

يعقوب لم يصدق القصة في الأصل وبقي أمل اللقاء مرسوم على جبهته حتى تحقق الحلم.

ولكن مشكلتنا صدقنا القصة وليس لنا من خيار لأنني قلت مرارا وتكرارا أنا مجرد مهاجر سري لا يشك. والشك جريمة. والجريمة الكبرى هي أن الحقيقة ليست في الواقع ولا في الذهن.

كل الفلاسفة سجلوا غيابهم ها هو الواقع عاري من الحقيقة وها هو ذهني خالي من الشك يكاد ينفجر ولا حرف واحد زائغ تجرأ على البوح بالحقيقة الكل بلع لسانه.

ماذا يا صلاح هل جف الضمير الإنساني وعليك أن تملك أكبر قدر من السذاجة والغباوة لتتمرن على الهدوء؟.

قال صلاح وهو يعصر دماغه ، مسكين شاب فقد وظيفته في مصر بتهمة عرقلة البلاد وفر بجلده إلى هنا. أنت تسخر مني، أو تحرضني على شق الزحام . أعرف أنك لست جاد في سؤالك، لأن الموضوع ليس بهذه البساطة.

سألته مرة أخرى وكيف يبدوا لك الأمر؟.

قفز من أمامي كالأبله، نظر إلي بسخرية حتى بانت كل أحزانه على الهواء الطلق مباشرة وصرخ نحن مجرد جردان في حدائق السادة، وعبقرية مصر تفوق العالم حتى كورنا لها حساباتها الخاصة... ففي كل

بلدان العالم خرج العسكر يحرص السكان وتجندوا لمعالجة المرضى. ولكن كورونا في مصر مختلفة تماما قصدت بيت العسكر وليس كل العسكر.

قاطعته هل هي رسالة مخبئة بين الأحرف الخارجة من جوفك؟.

قهقه بصوت عال وواصل حديثه : لا يخرج من جوفي غير الريق لأن بطني فارغة من كل بقشيش. لا بقشيش في الجيب ولا إمرأة في البيت كل بناة مصر تزوجها الدعاة يتزوجون أربعة دفعة واحدة. بحجة سواد عود الأمة ويخطبون على الشباب من لم يجد الباءة عليه بالصوم. أصلا منذ ما وعييت وأنا صائم عن الكلام وعن الطعام وعن الزواج، ليرتاح الجميع.

أما فيلا فكان مشدوها وخائفا على عائلته التي لا تملك قوت يومها، فكيف ستطبق الاستبعاد الاجتماعي وتلزم بيتها حماية لنفسها. هو هلاك يتربص بها لا محالة لأن الدولة نفسها لا تتوفر على نظام صحي.

وأنا أهم بالوقوف، تذكرت أن فيلا صافح سيرجينيو ... وبدأت أسئلة تداعب قلقي، ما هي الضمانات أن سيرجينيو غير مصاب بالعدوى؟. وكدت أختنق من الخوف، وبدأ خيالي يرسم لي الفيروس بشكله المرعب يقترب مني وبدون شعور قفزت بعيدا عن فيلا ، والرعب يسري في كياني.

طبيعي أن يزعجني الموقف العالم وقف مذعورا وكأنه يوم القيامة نفسي، نفسي ... وصوت يناديني من الأعماق:

"يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ".

حتى الخيال لم يسجل في فلكه هذه الصورة فما بالك الواقع الذي اختفت معقوليته تماما وأصبح كل شيء ممكن. عبارة كورونا تتردد في كل مكان، أزهقت أرواح كثيرة. فهل شقت طريقها إلي؟. أم أنني اشتريت تذكرة الموت يوم قررت الانتحار والمجازفة بحياتي هروبا من حالة مؤلمة كنت أشعر بها بعدما فقدت هويتي داخل أسرتي ووطني. ولم أجد معنى لحياتي سوى نهج سلوكيات دفاعية مجنونة، هناك قوة ضاغطة نخضع لها في لا وعينا فالمجال الذي نعيش فيه عندما يفقدنا الشعور بالحياة نتحرر منه بكيفية تسكننا على نحو غريب، تنتحر أحلامنا بقدر ما تنتحر أمالنا.

لتبقى هدية الحياة فارغة من أي معنى ماعدا ذاك الإيمان العميق بأن الحياة جديرة بأن تعاش :

أين؟. وكيف؟.

هي الحلقة المفقودة التي نرتبك في تلمس خطاها ونرتكب الكثير من الحماقات والمجازفات اعتقادا منا بأن الذين حاولوا قتل فكرة الإنسانية بداخلنا إلى حيث اللاعودة، نقاوم لإثبات العكس.

ولكننا في آخر المطاف نسقط في قتل الحياة تلك الهبة التي أوهبها الله وما قدرناها حق قدرها. وتشبتنا بالموت فما نعيشه يستدعي أن نتساءل هل حقا نحن آدميين؟.

اللعنة على اللحظة التي قدت فيها نفسي للهلاك، اللعنة على الشجرة التي لم تضللني أوراقها من حرارة اليأس التي اشتعلت بقلبي يوم أخبرتني شامة أن لا أتحمس كثيرا.

فهمت أن الطريق طويل ، والحل لا أملكه بيدي، فهو في الجهة الأخرى، وشامة ستظل رهينة عقلية تبيح لنفسها كل شيء ما عدا حق البنت في تقرير مصيرها بنفسها. أحيانا الجهل يقف في طريق الحب، ولكننا نحن الرجال نجهل تماما الحب ولا نستطيع أن نحب إلا تحت ضوء القمر.

هذا طبيعي، طبيعي جدا.

فالإنسان يتعلم من دروس الحياة، أعرف لم أختار دور الغراب الجريح فقد قاومت كثيرا لأكون الغراب الصحيح ولكن صلابة الوجود جعلت الغراب الجريح يلاحقني على نحو غريب...

وأعرف كذلك أنني لست مثل قطعة الخشب التي قالت يا ليتني رمانة في كرسي عرش الملك... واكتفت برسم الحلم والتمني على وجه الأيام، لكنها رفضت كل سبل تحقيق الحلم من تحمل ضربات النجار القاسية بمطرقته الحديدية، أو تحملها أسنان المنشار وهي تقطعها، بل حتى خيوط المسمار رفضت أن تساومها.

فكان مصيرها المحرقة. فأن تحلم بالقمة عليك تحمل ضربات الصعود وضريبة عدم القعود في مكانك. ولكن ليست كل الأحلام تترصع على منصة النجاح، ولا كل المحارق تترصد عيون الفاشلين فقط. فها أنا القابع في عمق محرقة الزمن، والساكن في خيلاء الوجود. تفترسني أنياب التهميش وتسحقني مرارة الاستغلال.

وأنا الذي ركبت حلما ورسمت أمنيات بتغيير الواقع، وتحملت كل الأوجاع وكل الضربات الموجعة التي تلقيتها على نحو مختلف عبر طول

الأيام وتقطيع أيام من زهرة عمري ورميها في المجهول.

ومع ذلك ها هي المحرقة تتصيد لحظتي المفزعة.

وها هي الأيام تحرقني على نحو مخيف ومرعب.

لم أرغب في الجنون، ولكن قيمة الشيء ندركه بعد فوات الأوان. وماذا ينفع أن أفهم الآن أن قيمتي الحقيقية أن أكون في المكان الصحيح؟. وأنا مدرك تماما أنني في المكان الغلط مثل ياقوتة مدسوسة في حاوية النفايات. فلا أحد تستهويه حاوية النفايات ليبحث فيها عن ياقوتة.

وحتى المثل الشائع يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر هو كلام للإلهاء والاستهلاك ليس إلا. هو مثل الخطاب الأخير لسيرجينيو المحمل بقيم الإنسانية وأنه يخرق قانون بلده من أجلنا، والحال أننا عبيد في مملكته. فالإنسانية الحقة هي أن لا يستغل ضعفنا وقلة حيلتنا ويمنحنا القليل من شروط العيش.

وهو الأمر نفسه يروجه الكثير بأن كورنا لا تميز بين البشر فالكل سواسية عندها كان فقيرا أو غنيا. فأنا لحد الآن لم أستوعب الكم الهائل من الترويج حد الثمالة لأسطورة كورنا عدوة الجميع. مع الإفراط في غلو المساواة هاته و ننسى أن 80٪ من ثروات المعمور في يد 2 ٪ فقط. ولحد الآن ما حجم الخسائر عند هؤلاء سواء في الأرواح أو القبضة التي يمسكون بها المعمور.

ولنفترض هذا القول صحيح... لنتأمل الخريطة التي توغلت فيها

كورنا واصطادت أكبر الضحايا و نوع الضحايا. فكيف نستطيع أن نلغي من حسابنا الصراع الخفي حول من يملك مفاتيح القيادة؟.

واضح جدا أن أمريكا تلعب بكل أوراقها وتضغط بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة من أجل الحفاظ على هيبتها وصون مكانتها وحماية مصالحها. وبما أنني مجرد مهاجر سري لا يشك ، والحالة هاته لا أشك في أن البشرية ستعرف الحقيقة بعد فوات الأوان، وككل مرة لا يزاح الستار إلا بعدما تمر السنين، أما الآن الضباب وحده ما يلف العقول، والفكرة المزروعة نجحت في كسب التأييد المطلق واختلاق بؤر ملتهبة انزلق إليها الإعلام بتهافت منقطع النظير، ويخبط خبطة عشواء في كل الإتجاهات.

ما يفعله الإعلام بالعقول لا تستطيع أية قوة كشف هفواته إلا الوعي الغائب، الحبكة الدرامية للحدث هي نفسها مع القاعدة وداعش. مما يفتح السؤال حول القبضة الماسكة بالإعلام.

أمام هذا الحجم من الترويع والتخويف من المستحيل الخروج عن الإجماع وإلا كان التطويع بشكله الماكر يلف على رقبة الخروج. كل الصراخ الذي كان يدغدغ الوجود الإنساني بالاختلاف وحرية الرأي، وأن صوت الحقيقة هو ما ينبغي أن تموت من أجله الأقلام. فما من شيء يذكر أمام جلالة كورنا غير الطاعة العمياء.

غاب اللّه من صدور المؤمنين، ولم يكتفي البعض بالتفسير البهلواني بمحاولة تطويع النص الديني ولي عنقه حتى يكون طيعا مجيبا لسؤال المرحلة. بل انخرط في حملة التهريج بأن الموت يتجول في

الطرقات فادخلوا بيوتكم لكي لا يقترب الموت منكم أو أهليكم. بضربة واحدة اختفى الله من القلوب، أستغفر الله العظيم.

من نصب كورنا إلها تسوق اللحظة ، يعرف جيدا الطبيعة البشرية التي تخاف من الموت، فهي مستعدة للتخلي عن كل معاني الحياة وقيمة الوجود مقابل البقاء حتى لو كان وجودا بهيمي لا رائحة ولا طعم له.

تركنا الجسر بما فيه ولم تعد إياك نعبد وإياك نستعين ضالة المؤمن. بل الزم بيتك خير لك ولأهلك ولبلدك. وللأسف الشديد التهريج يشنق اللحظة، والمليارات تصرف في التهريج تسحقها الرياح والجوعى والمرضى يسحقهم الخوف.

عادت البشرية لنقطة الصفر، فكل نضالات الشعوب تم الالتفاف حولها والسطو عليها، كل الشهداء الذين ماتوا من أجل الحرية والكرامة الإنسانية والعدالة الاجتماعية غدرت بهم اللحظة التاريخية بكل مكر. والمسرحية في غاية الإتقان الكل يمثل فيها دون وعي ودون أن يطلب منه أحد، الكل يدافع بشراسة ضد نفسه وضد إرادة التاريخ بكل ما يحمل من تعصب للطيش.

قال صلاح لا أدري كم من الناس ستموت لتنتهي القصة؟.

كنت ما أزال أتصبب عرقا من فكرة الموت هنا ولا أجد من يدفنني، أصبحت هذه الفكرة مثل غيمة ثقيلة تطوق خلدي. وأصبحت أخيرا مجرد

مهاجر سري يشك، في عدم إصابته بالوباء، والشك هو أقصى صنوف العذاب النفسي غير الشك المنهجي الديكارتي.

ولا وقت لي لأميز بين هذا وذاك ولكنه على يقين مطلق أنه ليس الشك المنهجي. بل هو الشك المطوق بالوساوس والمخاوف فكثير من الضحايا لا يقضي عليهم الوباء. ولكن الخوف يسحقهم ويفترسهم ويقضي عليهم.

وبما أنني مجرد مهاجر سري تخليت عن عدم الشك فلست مستعدا للتخلي عن حياتي. فما سبيل الخلاص من الشك إذن ؟. وكيف أتأكد من عدم إصابتي؟. بماذا يفدني عدم الشك إذا كانت الحقيقة غائبة؟. وبماذا يفدني الشك كذلك إذا لم تكن الغاية من الشك هي الطريق إلى الحقيقة؟.

الأمر هنا سيان لا شيء يقيني، لا الشك طريق الخلاص، ولا عدم الشك طريق الراحة النفسية، وأنا بينهما تفترسني أنياب اللحظة كغيمة ملفوفة فوق رقبتي.

فيلا يأكل الطماطم من الحقل مباشرة كالجراد والفئران أكيد لن ينتقل إليه الوباء. هذا ما كنت أردده في نفسي محاولا التخفيف من حدة الفزع الذي يلف رقبتي، هل أستسلم لليأس والشك وأنسحب بغباوة من الحياة ؟. طيلة تواجدي هنا، تقريبا ثلاث سنوات، وأنا أشتغل بشكل متقطع ولم أتمكن لهذه اللحظة من إثبات ذاتي أو الانفلات من الاستغلال البشع والبحث عن سبل أخرى تقربني من مستوى العيش. فما نخبئه من أيام

العمل نصرفه أيام التشرد والضياع.

في موسم الحصاد وجني الفواكه والخضروات تزداد ساعات العمل ونضطر للعمل أكثر من 12 ساعة في اليوم. وعلي مضاعفة الجهد حتى لا أعفى من العمل بكلمة باردة من سيرجينيو .

الضغط النفسي والرعب الذي يعيشه المهاجر السري أعمق من أن يوصف في بال أحد. هذا الصراع اليومي بشكل عنيف ليس أقل ما تواجهه البشرية اليوم. لا يعرف المأساة إلا من يعيشها حقا ها هي البشرية اليوم معزولة تماما، طوقت الحدود وأغلقت المطارات، كم عاشت غزة معزولة عن العالم تقاوم من أجل البقاء، وحراس على الأبواب كل داخل إليها أو خارج منها عليه أن يدلي بوثيقة رسمية للحراس...

ها قد امتلأ العالم رعبا كما لو انها حالة حرب في العراق وسوريا وليبيا وغيرها من البلدان التي أرهقت الصواريخ والطائرات الناس خوفا ورعبا، وكل يوم لا يعرف أحد في هذه البلدان. هل سيرجع إلى أهله سالما أم معطوبا وقد لا يرجع نهائيا. هو الرعب نفسه والحرب نفسها وربما هذه أشد خوفا ورعبا.

قررت مواجهة الوضع بشجاعة وخاطبت الفيروس وكأنه عدو يقف على النقيض الذي أجلس فيه، تجشمت عناء الحديث وصوبت عيني في البقعة المتخيلة من الجهة المعاكسة المفترض أن يكون العدو شاهرا سيفه لقتلي.

إن كنت تريد قتلي تعالى وافعل ذلك بنفسك، لا ترسل خيوطك

المرعبة تفتك دواخلنا رعبا وتزلزل قوانا وكياننا...

أعرف أنك لن تفعل هذا ببساطة لأن الجبناء يختبؤون وراء الوسخ لتصفية الوجود من بقع النقاء.

كن شجاعا مرة واحدة وأعلن موقفك بكل وضوح، كم أنت بشع ومرعب في صورتك الخفية.

ولكني أخبرك تستطيع أن تمتلك المال والسلطة وكل سبل القيادة ولكن تيقن أن الشهامة ليست هي استعراض القوة لإبادة الجنس البشري بطرق ملتوية تبعدك عن المساءلة القانونية...

بل هي في نشر كل سبل التعاون والتآزر وقيم الإنسانية وبناء العدالة الاجتماعية وترسيخ ثقافة العيش المشترك.

فهل تعي حجم الخسائر التي سببتها في الجسم الإنساني أيها الوباء الخبيث؟.

كما أخبرك أن قرار رحيلي من الدنيا ليس بيدك أو بيد غيرك مهما امتلك من القوة. ببساطة هو قرار واهب الروح. وحده يملك الصلاحية والقرار ويعلم الزمان والمكان. وهذا وحده يجعلني أقف بين يديك متحديا. ويوم ولدتني أمي ولدتني في واضحة النهار لا أتخبى وراء الفزع. ولكن كن متأكد أن الذي يلعب الأدوار الوسخة يموت شر موتة.

انتبه صلاح للقلق المنساب على جبهتي وخاطب فيلا قائلا: أحمد يختنق وأنا أنتظر جوابا على سؤالي أخاف أن أكون سببت له القلق بسؤالي.

بينما فيلا كعادته غير مبالي لا فرق بين الحياة والموت بالنسبة له دائما مغامرا، ويرمي نفسه للمخاطر لأبسط الأشياء، لم يبالي لحديث صلاح ولا لقلقي.

أخرجني هذا لبرهة من العزلة الفكرية التي كنت أعيشها ومن الرعب الداخلي وقلت موجها كلامي لهما معا:

القصة منتهية هنا منذ ما وصلنا إلى هنا ونحن نواجه الموت. وحتى قبل أن نصل لا يختلف الأمر في شيء. قصتنا انتهت يوم ولادتنا هكذا قرر السادة. وما الأيام التي نعيشها هي ليست من أجلنا ومن أجل أن نضيف شيء في هذا الوجود فقط لخدمة السادة، هذا قدرنا الحتمي.

أتمنى أن يكون هذا مجرد حلم تعيشه البشرية وليس حقيقة، تخيلوا معي أن البشرية نائمة نوما عميقا ويوم تستفيق تجد الأمر مختلف.

ضحك صلاح وقال لولا الاستبعاد المفروض لوضعت يدي على جبهتك لأقيس درجة حرارتك، لا شك أنها مرتفعة جدا، ومع ذلك أخبرنا كم من الوقت يكفي لتستيقظ البشرية من نومها ونفهم هل كل هذا حقيقة أم مجرد حلم؟.

أحسست بنوع من الاستخفاف في كلامه، حدقت في وجهه الشاحب شاب يتكلم الإيطالية بفصاحة وحاصل على شهادة عليا في بلده يواجه

بؤس الحياة لأنه حلم بالتغيير والحلم جريمة في الجغرافية العربية.

انتبهت أنني لست أقل منه بؤسا وقلت له :

تحتاج البشرية إلى صفعة قوية لترى لمعان الوجود قبل أن ينتهي بريق الخداع ... اقترب شاب من غانا لم أتذكر اسمه كان حديث العهد بنا ولم نقترب كثيرا خلال كل هذه المدة، كان يسرق حديثنا وأراد أن يشاركنا الحديث بقوله : شاهدت ذات يوم فيلما عن الوباء الذي سيقضي على الناس، والكل كان خائف ومرعوب وينتظرون من يخلصهم من جحيم الوباء.

بعفويته سأله فيلا ومن خلصهم؟.

أجاب الشاب بكلمات مقتضبة لم أكمل مشاهدة الفيلم فقد كنا على جنبات البحر نستعد للمغامرة وبينما كنا نشاهد الفيلم نادى علينا صاحب القارب لنعبر البحر ليلا ولم أعرف النهاية.

ضحك الجميع وكان الوقت مناسب لأشرح لهم أننا أبطال الفيلم وها نحن ننتظر من يخلصنا.

عم صمت قليل قبل أن يشير صلاح بيده معبرا عن سخطه وقلقه للوضع الذي نحن فيه وقال :

سيرجينيو لم يحيينا ولم يقتلنا، تركنا هنا وانصرف...

اقتربت منه قليلا وجلست أمامه مفترشا الأرض وقلت له : لا يحيي ويميت إلا اللّه .

لم يجد فيلا صبرا وكأنه ينتظر منذ وقت طويل هذا الكلام لينفجر قولا: وكورونا ، كورونا ... كورنا تقتل.

قلت له أستغفر اللّه.

لا تترك الشيطان يلعب بك، ولكن فهمت أن ما قاله تلميحا وتصريحا لما نعيش.

رغم ايماني وإدراكي أن الموت والحياة بيد اللّه فقد خفت كثيرا وقلت في نفسي : ماذا لو اعترفت الأرض ما في أحشائها من أرواح مدسوسة غصبا، ربما كان من الممكن أن تكون كثير من الأرواح فوق الأرض وليس تحتها لولا مصادفات القدر. هذه الأرواح التي تستريح من الوجود وتأخذ تقاعدا مبكرا من الحياة في وسعك أن تتخيل عشقها للحياة. وبسبب طينة من البشر تغادر هذه الأرواح في صمت، وقد لا تجد هذه الأرواح مكانا لتدفن فيها الأجساد التي كانت تزين لها الوجود وبعد ما خطفوا الأرواح من الأجساد تعرج الروح لخالقها، وتبقى كثير من الأجساد لغزا غامضا محيرا. وليس الجسد وحده من يدفن غامضا. بل يدفن معه الكثير من الوضوح والحقائق لينبت الغموض بعده ويرفض الرحيل.

سيأتي الوقت المناسب ونفهم كل شيء. لماذا العجلة؟.

مرة أخرى تيقنت أنني مجرد مهاجر سري مهما كان الشك فلا أشك في حقيقة يقينية وهي أن مصيبتنا كبيرة هذه المرة.

رن الهاتف وابتعدت قليلا عنهم صوت أمي جاء في وقته، الإنسان

في النكبات والأزمات لا يجد غير صوت الأمومة ينقش صدره بثلج الهدوء ويزرع في روحه بعض الاطمئنان. كان صوتها متقطعا وهي تقول ولدي أحمد ما بك منذ أسبوع وأنا أتصل بك، وهاتفك خارج التغطية خفت عليك ولدي كثيرا، كنت أتقفى أثرك في الهاتف، ولم نعد نرى سوى أخبار السوء القادمة من حولك...

كان كلامها يفتت شعيرات جسمي وأذني إلتصقت بسماعة الهاتف.

قلت في صمت كنت في حاجة إلى هذا الصوت الذي لن أجده في أي مكان. تملكت نفسي قبل أن أخبرها:

أنا بخير أمي كيف حالك؟. وكيف حال أبي مع هذه الجائحة؟. وهل ضحى تذهب إلى المدرسة؟. وهل مازال مراد يضربها؟. كان صوت ضحى مسموعا وهي تردد على أمي أخبره أننا لا نذهب إلى المدرسة.

أحسست بدموع تتسلل خدي وتسيل على صدري ، وحاولت أن أحافظ على هدوئي ومن دون أن أفكر قلت لها : نواجه قدرنا ، أثارني كلامها وهيج وجعي وأنا أعتصر الأفكار المترددة بدماغي استسلمت لصوتها الملون بالأسى والحزن:

إهرب إلى أبعد نقطة منهم لا تقترب منهم.

آه كيف أخبرها أنني أصلا في أرض خلاء في أبعد نقطة. هي المسكينة تسمع أنني بإيطاليا وحتى لا ينقبض قلبها ويشتد حزنها أخبرتها

أنني بخير.

والحقيقة أعرف أنني لست بخير ...

ومن أدراني أنني غير مصاب بالعدوى؟.

كل ما أعرفه الآن أنني مجرد مهاجر سري سرقت منه ذاته، حينما تكون في مكان غير آمن، تكون مجبرا على مجاراة القدر، ربما الشرارة تنتظر الإشارة للخروج إلى العلن متى توفرت شروط البوح.

لا وقت للبوح الشرارة تلاحق المكان والزمان، وما السبيل لمحاربة الريح الذي يقتلع الإنسانية من القلوب؟. هو دائما في عجلة من أمره، يخطف كل ما يصادفه في طريقه ولا يسمح بالتنفيس عن الزوايا المخبئة. ومن الذي لا يخاف من الريح؟.

وكورنا أشد سرعة وانتشارا من الريح، كل الأماكن مغلقة بالريح وكورنا. وما عادا مكان آمن من صواعق الريح ومن جنائز كورنا...

بالفعل كل النوافذ تتوسل شمس الربيع، وكل بريء يتوسل هواء الصباح بعيدا عن اختناق كورنا. ربما وصاية كورنا التي يتوهم الكثير محاربتها بالاختباء وإن كان ذلك وسيلة ناجعة وفعالة لحد ما. للتقليل من تهيجها واشتعال بؤرها. فالعالم ليس مستعدا لرهن الوجود لسجان كورنا.

قل ما تشاء ما عدا الغلط المتساقط مع الثلج... أستغفر اللّه وهل حديثي عن كورنا جريمة؟.

قال وهو يحتسي الكلمات الفارغة لا شيء يقيني بدون تفسير

مقنع.

وهو كذلك لكن لا تنسى أن السخافات تبرر ذاتها بذاتها ولا تحتاج إلى من يبررها. الشجاعة لا تكفي لقول الحقيقة. بالنسبة لي المعركة الخطيرة تبدأ من فرض حجة دامغة على شيء مجرد لا شيء.

ما هذا الهراء؟.

لا تبالي فقط لا شيء هو كل شيء. وهل من معنى لكل هذا ؟.

أتفهم هروبك من قول الحقيقة ولكن لا أتفهم عدم سقوط الشمس في الظلام. على الأقل عندما يغرق القوم في ظلام تام وتسقط عليهم الشمس فجأة يموتون رعبا.

إذن المصير الحتمي هو الموت والرعب يحصد من الأرواح ما لا يحصده غيره. هذا أفضل بكثير أن نرتعد من لا شيء.

هل يمكنني أن أفهم من حديثك أن كورنا لا وجود لها هي مجرد لا شيء والناس تموت نتيجة الخوف فقط؟.

مرة أخرى أزعم أنك لست مجرد مهاجر سري حائر بين الشك واللاشك. بل أنت على نحو مختلف ترى الشيء وتنكره ربما للعناد ما يبرره ...

أخطأت التفسير مثل كل المرات أنا فقط مهاجر سري لا أشك في وجود حقيقة كورنا وبما أنني لا أشك في حقيقة وجودها. فمن اليقيني هناك فكرة وجودها انطلقت من لا شيء. لا يهمني فكرة غبية أم نحن

الأغبياء.

المهم هو كورنا كانت قبل شهور قليلة لا شيء. وكيف لوجود هذا الشيء بهذا الزخم من الضجيج أن يحدث من لا شيء بدون حجة دامغة أليست هي المعركة الخطيرة بل والأسوأ في تاريخ البشرية.

كانت اللحظة قاتمة وسحابة عابرة فوق رأسي ودخان كثيف ملأ المكان بدأت أختنق وتملكني رعب كبير وأحسست أنها النهاية، فجأة رأيت شامة تلوح لي من النافذة أسرعت الخطو نحوها حتى اقتربت منها كانت تلبس فستان أسود وابتسامتها ملأت المكان.

قالت لي متى جئت ؟.

وكيف جئت؟.

وهل سمحوا لك بالمجيء؟.

أخبرتها أنني ركبت براق الشوق الذي أحرق وجداني، فقد قتلني الرعب هناك ورغبت في فنجان الهدوء على أعتاب رحابك.

بينما أنا أمد يدي إليها لأشدها إلي شدا، حنانا وشوقا، همت بي وكادت أن تطير علي قبل أن تتراجع إلى الخلف وقالت جئت على التو من ايطاليا.

ابتسمت وقلت لها نعم من أجلك تسللت من عيون كورونا لأحتضن اللحظة. صرخت في وجهي بكل قسوة ابتعد عني وهربت بعيدا ، بعيدا ، وهي تهرب وتهرب حتى اختفت عن عيني.

أيقظني صلاح بصراخه مع فيلا من حلمي. حتى في الحلم تخنقني كورنا وترهق تفكيري بأسئلة لا طائل منها. كان جسمي يتصبب عرقا وكأني قطعت مسافات طويلة في حر الشمس، نهضت متكاسلا على غير عادتي، غسلت وجهي وابتعدت كثيرا عن الجموع لأداعب الذكرى.

بدأت تموجات الماضي تحرث اللحظة بشكل متشابك، شعرت بصداع في رأسي، حاولت الإمساك بخيوط الذكرى لكن الرعب الداخلي كان يمنعني وكأن شريط الأحداث مسجل بشكل متقطع...

تذكرت قبل شهور وأنا أتحدث مع شامة كان حديثا مسليا مع موجة الجفاف التي تضرب المغرب قلت لها :

جغرافيتك ستحترق، عندما سأعود سأجدك صحراء قاحلة، تنشف سواقي الحب وتذبل زهرات الندى التي تزين عينيك.

ولكن بعد أيام فقط كانت جاهزة لترد الصرف وقالت لي بتشفي مبالغ فيه:

ها هو تاريخك يتلوث وتسحقه خفافيش الصين.

قلت لها منذ متى والصينيون يأكلون الخفافيش.

كان ردها ملتويا ورمت كل شيء لي :

نسأل صاحب التاريخ ، ربما يملك الجواب اليقين. أما الجغرافيا تقول الصين موطن بداية تلوث التاريخ. أليست كذلك؟.

الجميع يعرف أن عادة الغذاء الصينين منذ سنين طويلة ولكنها خفافيش آدمية. والجريمة الماكرة هو أن الجميع يعرف أننا لا يمكن معاقبة الخفافيش هل فهمت القصة؟.

ردت بحزن : صعب علي أن أفهم أنا مجرد صحراء قاحلة. هل فهمت؟.

فهمت ، فهمت ... شعرت بأنني أغضبتها عندما شبهتها بالصحراء القاحلة، هكذا نرسم الحزن بلا وعي منا، أو نفرض التباعد العاطفي بكلمات غير محسوبة. أدركت الآن خطئي. ما كان علي فعل ذلك. المرأة مثل النبتة عندما تشعر بالإهمال تذبل. أما حرارة الحديث تحرقها تماما، والحق كان كلامي حارقا جدا. خمنت كثيرا لماذا أصبحت أشبه ببيت خراب.

جمعت كل الألوان التي سرقت مني، تذكرت كل البقع الندية التي اختفت وأنا أجيب عن سؤالها لماذا لم تعد كالماضي؟ تذكرت أن الماضي خطف مني ومع ذلك حاولت الالتواء والتهرب. ولكنها كانت مصرة.

أنا خجول جدا.

قالت عندما كان المساء يرسم كاميرا من عمق وجدانك يصور بها تأملات رومانسية أين اختفى كل هذا؟.

كنت مضطر للاعتراف فقد أعياني الالتواء وأخبرتها أن الماضي مات. والجريمة غامضة. لم تفهم .

وكنت واضحا هذه المرة وقلت لها :

أنت قتلت كل شيء...

اختفى صوتها ورحلت منزعجة دون أن تطلب تفسيرا. بل حتى دون أن تسأل. ودون أن تضيف أي شيء. اختفت وتركت الشيطان يوسوس لها الكلمات.

كانت متلهفة لمعرفة الكثير، أو ربما كانت تنتظر الليالي البيضاء تترصع من جديد، أو على الأقل أن أحكي بشكل آخر. في هذه اللحظة وأنا أتابع شرودي ما كان عليها أن تقتحم خلوتي بسؤال مستفز. طوال الوقت وأنا أحكي لها صمتي. والصمت لا يعني أن تلقي علي أسئلة مضحكة ومستفزة.

ولكن شامة معها الحق متعة الحديث دفعتها للارتواء من الماضي بعدما جفت كل الكلمات من صنع فنجان اللحظة.

هكذا حدثت نفسي.

وأنا كيف يمكنني أن أسافر إلى الماضي وهي بيدها سحقت كل البقع، ورسمت كل الحدود. وبنت صور أكبر من صور الصين العظيم. لم تترك أي فجوة للاستراحة. هي ببساطة كانت تنتظر كلمتين ولو مزيفتين. أما أنا لا أملك من الزيف شيء. قلت لها مرارا وتكرارا الوهم لا يصنع حقيقة. وأصدق حب هو الذي عبرت عنه منذ زمن طويل وقد يكون اليوم هو نفسه ولكن الأمر الواضح لا نفهمه بكثير من الشك.

هنا تعلمنا الحياة منطق العبد والسيد، تابعين خاضعين كالقطيع للسيد رب العمل، ولا حق لنا في المطالبة بأي حق من الحقوق التي تتغنى بها أوربا.

أخرجني فيلا من هذه الذكرى، بقوله : علينا أن نستعد للأسوأ. كل الاحتمالات واردة، علينا أن ندبر أمرنا. الأمور لا تبشر بالخير إيطاليا تغرق في الوباء وأوروبا كلها عاجزة عن فعل شيء. وأنا لا أريد أن أكون حطبا لنار كورنا، أو فريسة سهلة يتصيدها الوباء. يكفي ما عشناه من قساوة ووجع... كان عدد المصابين والموتى يرتفع بشكل مخيف .

وبدأت أطراف الحديث تتجاذب بيننا من حديث لآخر. قال صلاح مازحا : نفر بجلدنا مع فيلا إلى الكاميرون. وعندما ينهض العالم من غيبوبته وكبوته ويلم جراحه. نكون على الأقل ابتعدنا من جغرافية الخطر. والكاميرون في أسوأ الأحوال أفضل بكثير من أوربا الآن.

أجاب فيلا بالقبول : مرحبا، مرحبا، ولكنكم لن تطيقوا العيش هناك.

أدرت رأسي نحوه وقلت له : كيف ما كان الحال أحسن من هنا، نحن في الهامش نواجه كل أشكال الإقصاء والتهميش، نكرس العبودية في زمن التغني بالحقوق.

كان فيلا يتصفح هاتفه وقال بأسف عميق: تلك الحماقة التي رمت بنا إلى المقصلة، وتلك الغلطة التي قذفتنا إلى الطيش لو قدر لي العودة لن أعود إلى هنا مهما كان رغم الفقر لنا طقوسنا وعاداتنا وتقاليدنا متوارثة

نتقاسمها مع بعضنا البعض. ثم نظر إلينا جميعا وكأنه يلقي محاضرة وكان جديا في حديثه، وبدأ يسرد علينا تاريخ الكاميرون وثقافته وتقاليده ونحن ننصت باهتمام مبالغ : أعرف أن الكثير في ذهنه صورة مغلوطة عن الكاميرون، والحقيقة شيء آخر. رغم الإثنيات العرقية المتعددة مثل الزولو، الهوسا، الأشانتي ... هناك مظاهر إجتماعية صارمة، والإنحلال الجنسي غير مقبول بتاتا عند مختلف العشائر. وقد يصل الأمر إلى قتل البنت إذا جلبت العار للعشيرة. والبنت البكر يحتفى بها بشكل خاص يوم زفافها تحتفل العائلة ولهذا طقوس خاصة . البكارة في المجتمع الكاميروني نقطة حساسة جدا. ولمشايخ العشيرة سلطة قوية وهو تقليد لم تنجح الرأسمالية من طمس معالمه أو القضاء عليه .

وأكثر من هذا قد تجد صبية في عمرها يوم واحد فقط وفي معصمها خيط كدليل خطبتها. والخاطب ينفق عليها حتى تكبر، فهي تلقائيا خطيبته ولا يمكنه التملص أو التخلي عن هذه الخطبة. لأن ذلك سيعرضه لعقاب شيخ العشيرة أو الفرار دون عودة. قاطعناه ونحن نضحك : وقلنا بصوت جماعي فهمنا هروبك الآن.

احمر خجلا ويمكن للإنسان أن يتخيل كم من الخجل يحتاج صاحب البشرة السوداء ليحمر وجهه. وفيلا شجاعا وجديا صارما وقت الجد. ولكن خجله في بعض المواقف كما هو الآن كان غريبا جدا، ولكنه في آخر المطاف تظاهر أنه غير مكترث وقال أنا هنا من أجل إنقاذ نفسي الآن لا يهمني أي شيء؟.

الحقيقة نحن خائفين جدا، وخوفنا أكثر مما يمكن أن يتصور، تحيط بنا المخاطر من كل جانب ولا حيلة لنا .

أوربا بجلالة قدرها، تستسلم للجائحة، تقدم ضعفها للعالم، ربما سقط القناع عن المعزوفات الغنائية التي تعزفها أوربا على طول الوجود. بأنها أرض علم وأرض تكنولوجيا ... الواجب الإنساني والأخلاقي هو حماية العجزة عوض رميهم بلا رحمة تفتكهم أنياب الوباء بكل قساوة .

هل نعيش الخديعة الكبرى، أقفلت البلاد، وكل بلد سد الباب على نفسه، الكمامات تغطي الأفواه والأنوف، القفزات ترصع الأصابع بالبياض، المعقمات أصبحت مثل هروين لمدمن لا يستطيع فراقها ... كثيرا ما أحاول أن لا أشك. وبماذا يفدني الشك الآن. أنا ما يهمني هو الابتعاد قدر المستطاع من طريق الوباء.

لا أشك في أن الإله الأسود الذي يقود البشرية هو صنيعة وهم الرأسمالية، بشر بالكثير من أجل سلب الكثير، واليوم يحصد إخفاقات التبشير ، العالم كله في قبضة الأوغاد.

أرهقتني الأسئلة بلا معنى ...هل استسلم الطب لهذه الدرجة؟. أين غاب العقل؟. وهل كل هذا من أجل رسم خريطة جديدة؟.

وهل ...؟. وهل ...؟. وهل ...؟؟؟.

هذه مشكلة كبيرة، كل هذا التراكم العلمي في مجال الطب وغيره، يقف الإنسان حائرا، عاجزا، أمام وباء غير مرئي. اختلطت التفاسير في أصله وفصله .

لماذا يختفي أهل الاختصاص وراء رجال السياسة، الطبيب ينفذ حرفيا ما يقوله رجل السياسة. كل القرارات خارج التخصص وخارج القانون، ولم يستطيع صوت العقل اختراق كل هذا الضجيج ومخاطبة البشرية بالهدوء. من يقول الحقيقة بأن الفيروس صغير جدا، ومن قذفه في الجسم البشري حقير جدا؟.

كان فيلا في حالة مؤثرة من الخوف والرعب على أهله وكاد يسقط على الأرض، كان يصرخ بعصبية ويسب الخفافيش، اقترب منه صلاح وهو لا يقل عنه خوفا ورعبا وقال : هل تعتقد أن الخفاش هو المجرم؟.

إذا كانت هذه الجريمة المرعبة فعلها خفاش، علينا أن نبيد جميع الخفافيش من الكرة الأرضية ونخلص الجنس البشري من هذا الرعب. لا يمكن أن لا ننتقم لبني جلدتنا من خفافيش لا تنفع في شيء؟.

هذه جريمة بشعة لا بد أن يعاقب مرتكبها. ضحك صلاح وهو يقرأ ما يصله بشكل مستمر على الواتساب من منشورات ومقاطع صوتية ومرئية حول الوباء. وتأثر صلاح بذلك تأثرا كبيرا حتى أصبح يردد أن سبب الوباء هو عقاب من اللّه للبشرية بسبب ابتعادها عن شرع اللّه، وعن الطريق المستقيم.

من قتله الوباء فهو شهيد، ومن صبر واحتسب فله الأجر العظيم،

بأمر اللّه أغلقت حانات الخمر والقمار، وبأمر اللّه أغلقت بيوت الدعارة والملاهي ...

قاطعته وقلت له وهل بأمر اللّه أغلقت بيوت اللّه، ومنعت العمرة والحج، وهل بأمر اللّه قطعت أرزاق العباد، وهل بأمر اللّه تزهق أرواح العجزة ...

نظرت إليه وخاطبته أعرف أنك ضحية الخطابات العاطفية، قاطعني بقوله : هل كل هذا مجرد كذب؟. وهل الشيوخ ورجال الدين والعلماء كلامهم عاطفي؟.

لم يفاجئني جوابه، ولم أقتنع به، ولكنني قبلته على علاته حتى لا أدخل في صراع مجاني، توقعت أنه سيهاجمني لأنه مشحون بالخطاب العاطفي. وحديثي معه الآن كمن يلقي بالحجر في الظلام... تساءلت عما يدور في ذهنه من أفكار. ولكنه فاجئني بسؤاله: ما هو سبب الوباء في نظرك؟.

أخذت بعض الوقت، وكأنني أفكر في شيء، أو أستجمع قواي ... وقلت له تتملكني أفكار غريبة، حاولت التخلص منها، أو التخلي عنها وتجاهلها، حاولت رميها إلى البعيد... فائض من التفسيرات وكثرة الضجيج وكلها لم تقنعني. أكثر من خمسين مليون ونصف مصاب ، وأكثر من مليون وفاة عبر العالم. هي جريمة بشعة لا شك، فكثرة الكلام لا تفيد البشرية في شيء. البشرية تبحث عن الخلاص، المستضعفين والفقراء وكبار السن في خطر حقيقي. قد تطول مدة الجائحة ويطول معها الحصار.

ثم نظرت إليه كان مازال ينصت إلي باهتمام وقلت له : ليس هناك مجال للشك بعد كل هذا، نحن في وضع صعب.

سألته:

لماذا تبرئ الخفاش من الجريمة وتنسبها إلى اللّه؟.

لم أترك له المجال ليجيب بل تابعت حديثي : ما يؤلمني هو أن ننسب جريمة بشرية مثل هذه إلى اللّه. اللّه ليس مجرما، اللّه لا يقبل بهذه الجريمة مطلقا، وهو الرحيم بالعباد.

هذه جريمة عفنة، جريمة وسخة، قذارتها تؤكد أن الفاعل مجرم آدمي، خبيث في تفكيره، خطير في تخطيطه، أخفى الجريمة حتى لا تلاحقه لعنة العقاب ...

في هذه اللحظة استحضرت الطفل السوري الذي قال قبل وفاته سأخبر اللّه بكل شيء. وقلت في نفسي هل سيقول له : أن بعض عباده يقولون أن اللّه مجرم، يروجون بلا وعي منهم بأن اللّه هو من ارتكب جريمة في حق البشرية عقابا لهم.

هذا الاختباء وراء اللّه لا مبرر له، ولا يعبر إلا عن ضعف عقلي. أو تأويل وتفسير لبعض الأحداث السابقة ومحاولة قياسها على زماننا وهو أمر يحتاج إلى تريث وإلى عقلنة. هناك فوضى وضجيج في كل مكان.

أعترف أن هناك علماء دين حقا، ولكن صوتهم لا يسمع ليس لعدم قولهم شيء. ولكن هناك تضليل متعمد تخرج آلاف الأصوات والأبواق

وينفخ فيها بالريح وتملأ الوجود ضجيجا ويختفي ذاك الصوت الحقيقي أمام زحمة الأصوات الوهمية. ويصعب معها أن يزاحم صوت الحقيقة هذا الزخم من التضليل. لو كان الأمر مختلف، كنا سنسمع صوتا مختلفا، صوتا شجاعا. يقول أن الله لا يخاف من أحد، ولا يخفي فعلته، هذا سلوك الجبناء. يقتاتون من ترعيب الناس وتطويعهم... هذا التطويع يجعل الناس تشرب النار وتقول باردة. لا خيار لها خوفا ورعبا تقول ما تسمع وترى بأنه الحقيقة المطلقة مع اليقين المطلق أنها ليست بحقيقة...

البشرية تدفع الثمن لحماقات المتهورين، من يحكم العالم اليوم. الدول التي تسمي نفسها عظمى، أين تكمن عظمتها؟. هل في جبروت ترامب؟. أم في ديكتاتورية جين بينغ وكيم يونغ أون؟. أم تتلخص في مافيا بوتن ...؟. ماذا ربحت البشرية من الصراع والتسابق في تكديس الأسلحة؟. وهل أموال بترول الشرق غير قادرة على إطعام الجوعى بالصومال وغيرها ...؟.

توجعني الأسئلة وتختفي الأجوبة وواقع الحال يخبرنا بأنه لا مجال للشك في أن العالم في كف يد عفريت...

وقفت سيارة بجانب الضيعة من نوع مرسيدس S-Class، نزل منها شخص لم يسبق لنا مشاهدته من قبل وبقي شخص آخر ينتظره في السيارة. اقترب منا وقال إسمي بيدرو pedro شريك سيرجينيو . صحيح لم يسبق لكم التعرف علي فأنا كنت أدير المشاريع بإسبانيا و سيرجينيو هنا. وبما أنه مات بالساحل العاج ...

بدأت الأسئلة تنفلت منا بشكل عشوائي : كيف مات؟.

أخبرنا بأنه مات بكورنا. ولكن ليس المهم هو كيف مات. المهم هو أن البلد يجتاحه الوباء. ولا يمكنكم البقاء هنا... هم بالمغادرة ولكن صلاح خاطبه بقوله : نقودنا من يدفعها ؟.

أدار رأسه وقال لا نقود عندي، أنا فقط أخبرتكم في الغد لا أريد أن أجد هنا أحد؟.

نزل الخبر كالصاعقة على الجميع، وأدركنا أن المصاعب لا تأتي فرادى، فيلا كان يتحدث مع عائلته لم يكن معنا، وهو أقدمنا هنا في الضيعة وعندما جاء أخبرناه بالقصة. قال أعرف بيدرو اسمه يدل عليه هو صلب كالصخرة، وحياته القاسية مليئة بالعنف. هو من أصل برازيلي وله جنسية إسبانية وشريك سيرجينيو كان في السنوات الأولى من مجيئي يأتي معه إلى هنا. وانقطعت العلاقة وما كنت أعرفه هو خلاف بينهما فهما يشتركان إلى جانب شركاء آخرين في تهريب السيارات والأسلحة والمخدرات وغيرها. وما هذه الأنشطة إلا للتغطية على أعمالهم الوسخة فقط. وربما هو الذي قتله وليست كورنا.

فهمت أن هذا هو الوقت المناسب لتصفية الحسابات سواء المافيا مع بعضها أو غيرها من الحسابات السياسية ، الكل مشغول بجائحة كورنا، والقاتل الوحيد المتهم الآن هو كورونا...

توغل الفزع بداخلي، عرفت أن العناد لم يكن رحيما معي، ليت البحر أزاحني من الوجود وخفف من جزعي. على باب الحلم كان الجنون جاهزا ليرمي الطيش إلى مربع حياتي. كان المساء يقترب من الليل وبدأت أشفق على حالي التي سترمى في المجهول وكم يكفيني المبيت في العراء والهروب من جائحة كورنا.

وقفت على حافة اليأس أنصت إلى مصائبي، بالأمس كان حلما مشتعلا وأملا لا حدود له، واليوم أحلام محطمة وأماني ممزقة. لا أعرف ما أقدم أو أؤخر.

فقط مهموم شارد البال ، أحتسي مرارة الوجع، وجع اللحظة يرميني إلى الاحتماء بالذكرى. مرت من أمامي ذكريات بدأت تعتصر خوالجي، سترحل غصبا من جدول الأيام حتى لو كان الليل دونها بسواده في لحظة لم أستوعبها بعد...

لا أحد ثم لا أحد فكر في جهنم بينما أنا كل تفكيري هو كيف الخروج من جهنم سالم العقل والبدن لا غير. أما المال حتى لو كان هو زينة الحياة الدنيا فقد تحول إلى سم يفتك بكل اللحظات منها الطيش والنضج وسرق كل أوقات الحزن والفرح...

جئت إلى هنا قبل سنوات وكلي أمل في غد أفضل. أي عقاب حل بي وأنا على مشارف الفناء، النحس عندما تصادفه فما عليك إلا أن تسلم رقبتك للهلاك خصوصا عندما تكون في موقع لا حول لك ولا قوة ...

العالم كله لا يفهم ما يجري سوى مشاهدة نتائج القتلى والمصابين عبر القنوات. وأنا مجرد مهاجر سري لا أشك قبل أن أتخلى عن الشك أمام زحمة مخاطر كورونا.

وكم هو الموقف مكلف ولكن ما العمل؟. خصوصا عندما لا تجد من البلوى غير البلوى ويطير كل ناطق باسم الحقيقة مع الريح ولا تجد إلا الضباب تجفف به بعض سواقي مرارة المكان.

الشك يحصد السماد والرماد والناس تقصد حكاية كورونا بما تشتهي الأنفس بمقص الفوضى ولم تعد الأرض صالحة إلا لزراعة اليأس والعصابات في كل مكان ... في التجارة كما في السياسة، في البر كما في البحر. ولم يتبقى إلا الريح ينشر غسيله على أبواب فارغة . حتى القطط والكلاب يائسة، لا تجد من يرعاها ولا من يتركها تقتات من خشاش الأرض ربما هذا صعب عليها . فأي أرض هاته لا قيمة فيها لا للإنسان ولا للحيوان ولا للنبات ...

هدمت كل المسافات لحرق نوايا الانتظار في ليلة العراء الطويل ، لم أنتبه للعناد الذي يسكن تفاصيل الانتظار إلا وأنا أحتسي نخب اليأس ... لم أرغب في تحريك منصة الهروب إلا مكرها . مزقت كل التأويلات والتفسيرات ولم أتيه إلا مع التبرير الذي كنت أقنع به نفسي بأن الضباب لا

يشكل حقيقة الصباح فالأصل هو شروق الشمس بعد ليلة ظلماء.

لكن هذه المرة هو مكان وزمان مختلف تسكنه الغرابة من حيث لا أدري فكيف لشمس الصباح ترفض أن تطل بإشراقتها ونورها وتبدد الضباب الذي يلف المكان في الصباح كما الظهيرة ...؟.

ومع الغروب تقسم أنها سوف تأتي حاملة معها أحلامها لكن العناد الذي يجثم على رقاب اللحظة الرعناء يصرم كل الحبال وينشر القلق غسيله مع دروب المتاهة ويبقى الحكم للأيام.

كل الفرص الضائعة نذهب إليها في عز تألقنا ولا نعير أي إهتمام لما سيأتي وبعدها نقول يا حسرتاه ...

جنون على رصيف الفوضى ، يدغدغ تفاصيل الطيش مع سويداء الغروب يطل هادئا ويرحل منزعجا بعدما يترك خدوشا يصعب لملمة جراحها ... ترجلت قافلة المنفى ، كل الدروب مقفلة إلا درب خبئت فيه طيشي بعدما تركت الغياب يأكل مستقبلي تهورا.

ما كان علي أن أفعل ، ما كان علي أن أقبل ، أن أرفض ، أن أغيب ، أن أحضر ... ما كان علي أن أسرق الحضور وأرميه في عتبة الغياب ، وحده الطيش أحيانا يمزق ويحرق أحلامنا مع غروب الشمس بنشوتها الخادعة ولم نتجرع وجع سم الخداع إلا بعد رحيل حلاوة الانتشاء بلحظة ما كان عليها أن تكون ...

الكل حائر في أمره خاطبتهم بالقول : ألسنا مجرد قطيع في ضيعة

اللصوص؟.

كان صلاح متوترا جدا وقال حتى الحدود مقفلة وإيطاليا بؤرة الوباء، إما نسلم رقابنا للوباء؟. أو لشرطة إيطاليا ولها الصلاحية تفعل بنا ما تراه مناسبا ...؟. لا خيار لنا نحن الحلقة الأضعف ما رأيكم ؟.

اليوم أشبه بجنازة، وربما أشد، لقد صدق حدسك شامة، ولم أبالي لكلامك : لقد قلت لي كيف أرمي مستقبلنا وحبنا للمجهول. اللحظة ترسم وجهها بالقبح، وكل أحلامي تبخرت. تمشيت قليلا كالكلب المسعور أو القط المسموم أطحن الهواء... اتصلت بشامة مرات عديدة ولم تجيبني. وبعد مدة ليست بالقصيرة، توصلت برسالة من شامة تخبرني فيها أنها لم تستطيع الرد لأنها كانت بجانب أبيها. لقد طفح بها الكيل وضاق بها المقام، ولم تعد تطيق الانتظار. أخبرتها في رسالة عبر الواتساب أن وضعنا خطير وأنني أغرق في مشاكل ولا أجد مكانا هادئا أستريح فيه.

أجابتني بعبارة قاسية: طريقك ليس طريقي لن أظل رهينة مشاكلك التي لن تنتهي. عش مشاكلك وحدك ...

رفعت عيني من شاشة الهاتف وصوت رسالة أخرى يرغمني بالعودة ولكن هذه المرة الكلمات أشد فتكا للعشق القابع بداخلي فقد أصبحت تكرهني وتكره اليوم الذي تعرفت فيه علي.

خمنت كثيرا في سبب الكراهية هاته، أدرك الآن أنني أواجه الفراغ ولكن استعصى علي الفهم، تمسكت باللحظة المفزعة، ويؤلمني قلبي حينما ترى عيني هذه الحروف الساقطة على الوجع. تتراءى لي مشاهد كثيرة

في وجه الماضي فمن أين خرجت الكراهية؟. وجه شامة خالي من الكره كما عرفته من الذي تغير في معادلة الغياب ؟.

الليلة تستقبلني بالحزن وأشعر حينها مثل طعم سقط في بركة الصياد ليغتال النور المتبقي من أيامي، أأصرخ في شوارع إيطاليا الصماء وفي هذه الليلة الظلماء : أحتاج لأن ألمح نورا أو بصيص أمل ، أما الوجع منذ ما ترجلت قافلة الهجرة وأنا أتسكع في العتمة وكم هو قاس هذا التيه، بقدر ما هي قاسية كلمات شامة.

لم أجبها شعرت بقساوة اللحظة تنهش عظامي، وأنا مهاجر سري مطرود من العمل أواجه شبح كورنا في المجهول ، طاحونة الحياة تعصر ما تبقى من عروق في جسمي. غرقت في موجة الحزن وتجمد الدم بداخلي، تخيلت شامة ترمي الماضي وتحرق الذكريات على مشواة المنفى.

ولكن مهما كان معها الحق، سنوات وهي تتوسد أمل اللقاء، تركتها حزينة، كسرت خاطرها، لم أسمع كلامها ...

نظرت غير بعيد فرأيت سيارة قادمة في إتجاهي، خمنت أنها سيارة الشرطة ولكن لما توقفت أمامنا تبين أنها لمهاجر هندي وصله الخبر من بعض الهنود الذين كانوا معنا وجاء لأخذهم، كان يتكلم الإيطالية وفهمت من حديثه مع صلاح أنه يقطن بلاتينا.

ساعتها تذكرت عبد العزيز المغربي من قلعة السراغنة الذي التقيته صدفة في السنة الماضية عندما ذهبت مع صاحب الشاحنة للتسوق. فقد أخبرني أنه ينشط في جمعية خيرية تساعد المهاجرين. فتشت على

رقم هاتفه، اتصلت به وكان الوقت يقترب من الليل.

أنا أحمد المغربي مهاجر سري في صقيلية ...

آه عرفتك ، مرحبا ..

أخي نحن في ورطة، طردنا من العمل... ولا مأوى لنا . ولا مكان نذهب إليه.

تنهد وقال : الوضع صعب على الجميع. كم أنتم؟.

الآن ثلاثة : تقريبا الجميع دبر أمره، ولكن أنا وصلاح وفيلا لا نعرف أحد هنا.

سأحاول فعل المستحيل لأصل إليكم، لا أعرف إن كان مسموحا الذهاب إلى هناك. في ظل الحجر الصحي كل الطرق مقطوعة. ولكن سأحاول.

وقفت أتطلع ذات اليمين وذات الشمال، أترقب الطريق وبجانبي صلاح وفيلا يرتعدان خوفا، طال انتظارنا والليل يرسل حماسه لينفخ في روحنا مزيدا من القلق. ظننت بعد طول انتظار أنه لن يأتي إلينا، أو ربما حاول عبثا وكل الطرق مقفلة، أوشكت على الانهيار تماما، وفضلا عن كل هذا أنا مهاجر سري غريب عن المكان.

عندما دخلنا في النصف الثاني من الليل لم أعد قادرا على الصبر في هذا الفناء الخالي، كان البرد يتحرش بجسمي والظلمة تلف المكان، والقلق يغطي اللحظة، وأنا أتصفح رسالة شامة وأرتعش من البرد ومن

قساوة شامة وآلاف الأسئلة تخطر ببالي : هل تزوجت ؟. هل كيد النساء حل في غير موعده ؟. هل سئمت الانتظار؟. ودون شعور مني كسرت الهاتف لأن مشاعري تكسرت على صخرة اليأس وأنا كالبهلوان رميت بكل شيء إلى مقصلة الجحيم .

انتبه صلاح إلى عمق الوجع الذي غطى اللحظة وسلمني بطاقة هاتفي بعدما تفتت الهاتف نهائيا وتشتت خيوطه في شعاب المكان. في هذه اللحظة بدأت خيوط ضوء سيارة تزور المكان كبرق خاطف وبدأ يكبر ويكبر حتى أضاء المكان كله. بدأت الصورة تتضح وند صوت من داخل السيارة هيا أسرعوا اركبوا السيارة تأملته إنه صوت عبد العزيز جاء بنفسه. أحسست بالدفء وشعرت بالأمان يعود إلي شيئا فشيئا.

ركبنا جماعة في الخلف وتركنا الضيعة خلفنا،

السيارة تسير إلى وجهة مجهولة ، تشابكت الأحداث والمآسي بداخلي وصورة شامة تحرث سجيتي. وحدها كانت الأمل ولكن بعد اليوم طريقنا مختلف، توقفت السيارة في مكان مظلم نزلنا على ضوء السيارة ودخلنا مكان أشبه بخم الدجاج، كثير من الشباب مرمي بشكل عشوائي في المنزل ومن جنسيات مختلفة، عبد القادر وأصدقائه بالكاد يدبرون بعض الاحتياجات البسيطة. عالم مخيف ومرعب خارج الإنسانية وخارج منطق شروط العيش، من صنع هذا العالم .

سلمت نفسي لليأس، خيل لي أن بقايا الأمل تتطاير في محراب أيامي، ويطوقني الوجع، نظرت إلى الخلف ها هي شامة تنسحب من القصة

وترسم السواد على لوحة عشقنا. نظرت إلى الأمام حيث المجهول والغموض يلف رقبتي. نظرت حولي المكان مكدس بأجناس مختلفة من البشر كل واحد ساقه قدره إلى عتبة الفناء بما لا يشتهيه الحلم. رائحة كريهة في معسكر البؤس، لا أعرف كيف دفع كل هؤلاء أخطاء حكوماتهم وطيشهم. سمعت الكثير يطلب الفيروس ليخلصه من عناء اللحظة وهذا أبشع جحيم يمكنك أن تتصوره في المنفى.

نعزف الوجع على الريق، إيطاليا مهد النهضة الأوربية، هنا طبخت النهضة ونضجت الكثير من الأفكار التي أنارت درب أوربا. لكن حظنا سيء جدا ولم نتنفس إلا هواء البؤس. مركز الفنون والعلوم المختلفة في الفكر الإنساني يبسط مكره ولا أرى إلا الوجه القبيح من رعونة الوجود. أين اختفت المسارات؟.

الأغنية التي يعزفها الحالمين بأن أوربا تملك الفائض الإنساني وتوزعه مجانا على عابري سبيل وكل متسول انقطعت به السبل في بلده يتلمس خطى العيش، أين اختفى هذا السخاء؟. أي وجه من وجوه أوربا أتصفح الآن؟.

كل هذه الأسئلة لا تفدني في شيء، فقط تشق رأسي ألما وأنا أركض وراء العناء. كل ما يهمني الآن هو الخلاص. حتى شامة تركتني مقتولا في بركة التيه والضياع وتواطأت مع الجحيم على حرق الخطوات المتبقية في عتبة الوجود.

الشيء الوحيد الذي نروض عليه أنفسنا هو كيف نتعلم الصبر على

البلاء؟.

لم يكن الصبر الشيء الوحيد الذي نلجم به وجعنا، بل موجة من التمرد اكتسحت داخلنا وصرخنا بشكل جماعي : متى يتوقف الجحيم من نهش أدميتنا؟، ليخلصنا الموت.

الهنود مثل الجراد في المكان، يأكلون الأخضر واليابس يسكنون جماعة نساء ورجال وأطفال بل حتى الحيوانات صراخ الدجاج في بيت هندي مجاور لا يتوقف.

الجوع لا يترك مجال الاختيار ماذا سنأكل المهم أن تمتلأ بطوننا؟.

نظرت إلى صلاح وهو يرمي دلو الحلم في بئر سحيق وأنا لست أقل منه شئما وقال لي : نرمي منديل الجرح في الحياة بعدما أدارت ظهرها في وجهنا. قلت له ها أنت قد سكرت بالوجع ، قل لي ماذا أنت فاعل الآن؟.

أجاب وهو يرتجف لا أشعر بالارتياح هنا، علينا فعل شيء.

ما هو هذا الشيء لنفعله ؟. كلنا نود فعل شيء سألته وأنا أنظر للسيارة التي تقترب من المكان، قطع حديثنا عبد القادر عاد ليطمئن علينا. نزل من السيارة محمل بأكياس بها الكثير من الخبز والحليب والخضراوات. وقال الوضع مقلق للغاية هذا ما استطعت جمعه. أعرف أنه غير كاف ولكن أفضل من لا شيء.

شكرناه جميعا على مجهوده، لوح بيده لرجل كان مازال مرابطا في مكانه داخل السيارة وطلب منه النزول. رجل غطى الشيب رأسه نحيف البدن

لا تفارق السيجارة شفتيه. لما اقترب قال وهو ينفث دخان سيجارته في الهواء مضى وقت طويل على هذا الوضع. لكن من يخاف من الطيور لا يزرع الذرة. أنتم اخترتم المغامرة. ترجلتم قافلة الحياة على نحو مختلف رغم قساوة الظروف ومرارة الصدف التي اعترضت طريقكم في البداية سينفرج الكرب. كان هادئا وواثقا من نفسه بينما نحن ننصت بذهول لأننا نترقب أية كلمة نراها مفتاح الخلاص. وكلامه هذا مثل خطبة فقيه الجمعة يقول للناس مهما تبللت أيامكم بالمعاصي فالعبرة بالخواتم.

قاطعه عبد القادر بقوله وهو يربت على كتفه : عبد السلام رجل المهمات الصعبة. كلما طلبنا منه مساعدة إلا وكان حاضرا...

عبد السلام ريفي الأصل من نواحي مدينة الناظور يريد أن يعيش وحيدا، لم يرغب في الزواج مثل راهب في كنيسة القديس. ولكنه بحق يفيض إنسانية. دائما يقول يجب أن نعيش على نحو مختلف مهما كانت الصعاب علينا التغلب عليها وأن لا نستسلم.

كم كنا خائفين ونحن نسمع هذا الوعظ، لا أستطيع النظر إلى وجه السماء دون أن يخطفني الوجع. فكيف أواجه الصعاب في الركن الخالي من العالم. أظن أنه لا يعلم كم هو سخيف أن ترمي الوعظ على القلوب الباكية التي تبحث عن من يمسح دمعها.

تملكني الوعي باللحظة. وكلمات عبد السلام ترشق عظامي وتدغدغ مشاعري، في آخر المطاف معه الحق : بماذا يفدني البكاء والهروب من الواقع؟.

في نفس الوقت نحن لا نفعل شيء في قبيلة الضياع مجرد نجتر اليأس، هو على الأقل قذف الحماس في القلوب ورحل، فتح السؤال على منصة العوالم الممكنة.

نستطيع مقاومة الرغبة في الحصول على اللذة، ولكن لا نستطيع الخروج من السجن الذي يكبل تفكيرنا. هذا المكان مخيف ومرعب لا تتوفر فيه أدنى شروط العيش. والبقاء هنا مثل البكاء على صخرة اليتم لا تقدم ولا تؤخر ولا تفيد في شيء.

الشيء الوحيد الذي علينا فعله هو الخروج من هنا قبل أن يداهمنا الموت هكذا قلت لصلاح الذي كان يلعب مع فيلا لعبة الورق لقتل الوقت. توقفا معا عن اللعب وقال : كيف ندبر الأمر ؟.

أجاب فيلا : أحمد تأثر بكلام عبد السلام ...

قلت له في هدوء تام : أعتقد هي فرصتنا الوحيدة للنجاة

قاطعني فيلا : سأكون سعيدا إن فعلت شيئا كهذا؟.

سألته : هل أنت تعرف ما تريد؟.

قال : أعرف ولكن كثير من الناس يعرفون مثلي أو أكثر مني لكن المشكلة ليست هنا. أنا جاهز لأي مغامرة لكن أين؟ وكيف؟ ومتى ؟.

نهض صلاح من مكانه كان بعض الشباب غادر المكان إلى وجهة مجهولة لا نعرف إلى أين؟. الجو غارق في العتمة، والمكان خارج جغرافية الوجود، لا روح الحياة تتجول هنا، وجه أوربا القاسي من يكشر أنيابه

لافتراس حلمنا. عالم بلا قلب، بلا روح، أحجار تتراقص في كل مكان. الشمس تصلق الغروب بالصمت على ما تخبئه أحشاء أوربا من عار. والإعلام الماكر يكتفي بنقل مبارة كرة القدم ويتتبع حياة المشاهير.

استولى علي شعور غريب، حملت وجعي وقلت لهم من يجازف بالمغامرة؟.

قال صلاح إلى أين؟.

قلت له إلى المجهول، إلى حيث تقودنا أقدامنا.

قال فيلا : الوضع سيء جدا لا يمكننا فعل شيء الآن ، علينا انتظار الوضع.

قلت له انتظر وحدك سأرحل ، تبعني صلاح تمهل ، تمهل سأرافقك. ونظر إلى فيلا وقال له: لماذا أنت خائف؟.

قال خافضا رأسه : سأذهب معكم ، هيا إلى الجحيم. ليس أقل من هذا العناء الذي نفترشه صباح مساء، لقد مللنا؟.

في خيالي الكثير من السيناريوهات ولم يطاوعني عنادي على البقاء جامدا أنتظر ، فقد اندفعت بشغف لتحقيق الفضول الداخلي . كان نداء الرحيل يصرخ بداخلي.

قبل الانصراف حاولت الاتصال بعبد القادر وأشكره على معروفه ولكن رأيت من المناسب أن أترك له رسالة شكر وامتنان مع صاحب المنزل الذي شكرناه بدورنا على الضيافة.

تحركنا إلى وجهة مجهولة ولا نحمل إلا بؤسنا. ليس لنا ما نخسره في آخر المطاف.

في الطريق حيث نمشي صرخ أحد المهاجرين الطريق طويل من هنا على الأقدام، هناك في الجانب الآخر بعض الشاحنات تمر من تيراتشينا محملة بالبضائع قد يصادفكم الحظ، قطعنا الطريق وبدأنا نترجل عشوائيا في الإتجاه الذي أخبرنا به المهاجر. جلسنا في ركن من أركان الطريق دون أن نعرف شيء عن المكان ولا عن طبيعة الجغرافية المحيطة بنا. علاوة على ذلك لا يوجد ما نأكله، فقط نترقب المجهول.

قال صلاح : لقد قرأت في القرآن أن سبب هلاك الأقوام السابقة هو تكذبيهم للرسل. فما هي معصيتنا لنستحق الهلاك؟.

ضحك فيلا وقال أنا قرأت في التوراة أن نواميس الكون لا تتغير فكثير من القرى خسفها الله لما كانت تقترفه من مفاسد.

كنت أراقب بتعب شديد الحوار البائس واكتفيت بالصمت لأن البلوى أعمق من النبش في الجراح. راودتني فكرة الجنون والمغامرة والارتماء في حضن الشرطة وهي تقرر ما تفعله. لكن فيلا أخبرني أننا سنكون فئران تجارب اللقاح ، لقد أفزعني تصريح فرنسا بهذا الخصوص.

بينما نحن نتسلى بالحوار وقفت شاحنة بجانبنا اقترب صلاح من صاحب الشاحنة وحده من يتقن الإيطالية، وبعد حديث طويل مع السائق قال صلاح موجها كلامه إلينا : هل نذهب معه إلى اسبانيا مقابل مبلغ مالي؟.

قلت له : أين هو هذا المال لندفعه؟.

أخبرني أنه سيدبر القصة المهم هو الرحيل. ركبنا الشاحنة مع البضاعة ولم أعرف ما هو الثمن الذي سندفعه؟.

في الطريق لم أتمكن من رؤية شيء ، الشاحنة مقفلة بإحكام كدنا نختنق في زحمة السلع.

الفصل السادس

وصلنا إلى اسبانيا ولم أعرف كم من الوقت قضينا. كانت إجراءات المراقبة مشددة، ولكن التهريب لا ملة له، لهم طرقهم وأساليبهم، كما تهرب الممنوعات يهرب البشر حتى في زمن كورنا.

كان الوقت مبكرا ، بالكاد كنت أميز ما أشاهده. مكان غريب أول مرة تلمح عيني هذا العالم، سمعت أن هذا المكان اسمه ويلفا ، كنت جائعا ومنهكا أخبرني صلاح بأن الرجل دبر أمرنا ، فقط علينا اتباع تعليماته، أصبحنا خرفان في سوق الماشية نقاد حيث يريد صاحب الضيعة.

دخلنا مقهى ذكرني بالمقاهي الشعبية المغربية في الأحياء القديمة. بعدما ارتوت أحشاؤنا وملأ الدفء معدتنا أخبرنا الرجل أن مهمتنا بسيطة، سنقوم بتفريغ الشاحنة وبعدها نقوم بتلفيف السلع في أكياس بلاستيكية وهذا العمل يتطلب سرية تامة.

وافقنا على الفور ليس لنا من خيار غير تسليم رقابنا لكل بشاعة ووساخة. نحن لسنا في وضع يسمح لنا بالرفض.

عملنا في فناء تحت الأرض، ظاهره ضيعة في ملكية أحد الفلاحين بها كل أنواع الخضر موجهة للتصنيع والتصدير الخارجي، لكن هذا مجرد غطاء لتجارة الممنوعات، فأغلب الشاحنات تشحن بالممنوعات من تحت و ببعض صناديق الخضر من فوق والواجهة للإيهام فقط.

لم تتوقف الحركة عن المكان في النهار كما الليل، البنات من مختلف الأعمار والجنسيات يتم شحنهن بالممنوعات وإرسالهن إلى الوجهات المقصودة. مكان التلفيف خاص بالعاملين ورب العمل وبعض

أصدقائه والزبناء. مكان سري جدا، ومكان التخزين والشحن في الأعلى، لم يكن مسموحا لنا بالخروج في البداية خصوصا يوم شحن البضاعة أو معرفة وجهة الشاحنة لا أحد من العمال يعرف التفاصيل. داخل الفناء كنا ننام ونأكل ورغم الظروف القاسية فالمبالغ المالية تغري العاملين هنا.

اكتشفنا جانبا مخبئا من الحرمان وقساوة العيش يكبدها المهاجرين. مساكن من صفيح تنعدم فيها أبسط شروط العيش ، أغلب المهاجرين هنا يعيشون على التسول في انتظار إعانة قد تأتي وقد لا تأتي. ومن يكون محظوظا يحصل على بعض المال مقابل العمل سويعات قليلة في الحقول أو في الممنوعات. مشاهد مقززة تحفل بها جغرافية أوربا. متى تغرد شمس الحقيقة خلف أستار جلالة أوربا العظيمة؟.

الظروف القاسية التي يعيشها المهاجرين من جنسيات مختلفة تحت رحمة عصابات المتاجرين بالبشر مرعبة في زمن الحقوق.

بعد أيام قليلة من العمل داخل فناء حتى الشمس لا تستطيع اختراق حيطانه ونحن نلف السلع في الأكياس، بدأنا نخرج بالتدريج ونكتشف المنطقة ، أحز في نفسي على طول الطريق لحقول الفراولة الشاسعة معاناة العاملات المغربيات وغيرهن من الاستغلال بكل مظاهره وتجلياته.

وهذا كاف لتمزيق كل الضوابط الأخلاقية والقواعد القانونية التي ترسم بها البلدان مرآة البوح.

مقصلة العيش هنا خارج تفاصيل البشر، وخارج القانون، وخارج

التاريخ ... سحقا للعناد الذي قادني للطيش ، الشيء الوحيد الذي ملأ تجربة أيامي هي أن ذاكرة الإنسانية مثقوبة ، لا تسجل إلا ما تراه مناسبا للبوح ويسيل من البوح كل صمت مطبق على الفضيحة. ولا أرى من فضيحة وجودية أكثر من أن تتلوث جغرافية أوربا بالبؤس. على الأقل حفظ القليل من ماء العين، ومسح بعض المشاهد المشوهة للوجود الإنساني في صورته المقيتة على النقيض من التسويق المبالغ فيه والذي يخطف قلوب الحالمين مثلي بتغيير حياتهم.

في صبيحة الأحد من آخر يوم عملنا اتجهنا إلى المقهى بعدما تسلمنا أجرتنا. في الجيب القليل من المال وفي الذاكرة الكثير من العار سيبقى خالدا في متحف ذاكرتي أنني ساومت مستنقع الوسخ.

لم يكن يخطر على بالي في يوم ما أنني سألف الممنوعات بيدي مقابل المال. ليس المال وحده من قادنا إلى مقصلة الوسخ، عنق الزجاجة الضيق الذي لف حياتنا ونحن على عتبة الفناء. ولا خيار لنا إما القبول مكرها بحالة الطبيعة والتي لا قانون ولا معيار أخلاقي يتجول في رحابها، أو إحتساء عصير الوجع على الريق، هي غريزة البقاء عندما يخنقك الموت تتوسل أعتاب الشقاء رغما عنك.

الجو حار وكثير من الغبار على جنبات الطريق ولا شيء يغري بالبقاء هنا. جلسنا نحتسي قهوة الوجع ونتراشق الحديث في ما بيننا وصورة أمي تدغدغ وجداني ولا حيلة لي يعلم الله كم من محاولة يائسة للاتصال بي دون فائدة. الهاتف انكسرت ضلوعه وتمزقت خيوطه كما انكسرت

مشاعري وتمزقت وريقات العشق بقلبي ماذا ربحت شامة من قتلي؟.

الغرباء في المقهى مثلنا بؤسا وهذه سنن الكون، نتعب بلا فائدة، مع الموجة الملعونة لكورنا أصبح وجه الحياة قاسي، الجميع يهرب من الجميع، تغير كل شيء، انقض الجنون على الجنون، وركبت الشمس غبار الاختفاء، وحده الشك والعذاب سكن القلوب. أشد العذاب فتكا للقلوب هو الخوف من الموت وليس الموت نفسه. والصورة التي تربعت بها كورنا على القلوب هي زرع الخوف من الموت. الخوف يطارد القلوب واحدا واحدا ...

كل الموتى في سجل كورنا، تقاعد عزرائيل ... أستغفر اللّه.

ومتى حدث هذا ؟.

عندما أطل الغثيان، وكشرت أنياب الماسونية وجوقة التطبيل كانت جاهزة . والأصوات التي تصرخ في الليل من يسمعها؟.

الليل ليس للصراخ، كل العويل الذي يسقط في الليل كصياد القمر في ليلة مظلمة، هي محاولة بئيسة.

وما العمل إذن ؟.

العمل هو أن يتوقف العبث، يتوقف مسلسل الموت،

الموت خنقا بالكمامة،

الموت شنقا بالخوف،

الموت تسليما للخرافة،

الموت تخلصا من معارض ماكر،

الموت يقطف الجبن أكثر من الأجل...

أسباب الموت كثيرة وكورنا وحدها من تحمل السجل.

لو تخلص الناس من خوفهم ومن جهلهم ومن الخرافة لكان العالم شيء آخر. ولكن ماذا بوسع الناس أن تفعل وهي مطوقة بالقوانين؟. الذين لا يخافون من الموت من كورنا يخافون من الموت تحت التعذيب من هم أشد قساوة من كورنا. تلاحقهم التهم أينما حلوا.

بدأت شمس الصباح في تصاعد واقتربت من توسط النهار، على جانبنا رجل غريب يحتسي قهوته مع زوجته اقترب منا، يتكلم بلهجة لبنانية اغتنمت الفرصة وانغمست في الحديث معه، أخبرني أنه يقطن بمدريد هو وزوجته المغربية. ويملك مقهى كانت متوقفة بسبب الجائحة ويرغب في استئناف العمل، تنفس صدري الصعداء وبدأت تموجات الحلم تطل. تحدثنا مطولا كنت أجد في كلامه متعة ، تقدمنا في الحديث عن شروط العمل فكان شرطه أن نعمل بدون أوراق، وإذا ارتاح لعملنا سيقوم بنفسه بتسوية وضعيتنا القانونية.

لم تكن لي الرغبة في الرد على كلامه أو التعليق عليه بل كنت أكثر حماسا وأملا من صلاح وفيلا، العمل عبادة وأنا جئت هنا للعمل على بركة اللّه.

ركبنا نحن الثلاثة في الخلف، وبجانبه زوجته التي لم نسمع منها ولا كلمة واحدة حتى اعتقدنا أنها بكماء.

وصلنا إلى المكان وأشار إلينا بالدخول. كانت المقهى كبيرة وفتاة في عمر العشرين تقوم بتنظيف المكان يساعدها رجل خمسيني سنعرف في ما بعد أنه رجل ثقة زياد صاحب المقهى.

مباشرة بعد دخولنا المقهى استقبلنا الرجل الخميسني يتكلم الإسبانية وكثير من اللغات لكنه ادعى انه لا يعرف العربية.

قلت في نفسي مستحيل أن يكون الرجل كما عرفنا على التو هو رقم واحد في سلم العاملين بالمقهى لا يعرف العربية وكثير من الزوار عرب.

ولكن ما شأني الآن بهذه الأسئلة أنا الذي لم أتعلم الإسبانية معظم الدول العربية تتبنى لغة التدريس ما بين الفرنسية والإنجليزية ولم تترك الخيارات الواسعة حسب الاحتياج والرغبة.

كانت لغة التواصل في البداية صعبة قبل أن ينبهه صلاح إلى الحديث بالإيطالية سيكون أفضل. قبل على مضض فهمت أن الإسبان يفضلون لغتهم ويدفعك لتعلمها رغما عنك إذا أردت الحديث معه.

لا أطيل عليكم إسمي دافيد أنا المسؤول الأول عن المقهى لا يمكن فعل أي شيء دون استشارتي. المطلوب منكم الهندام وحسن الاستقبال والود في التعامل مع الزبناء، هذه المنطقة سياحية يزورها كل سكان المعمور.

وأنا أستمع إليه أسرق النظر في التصميم الخشبي الرائع للمقهى.

وفي نفس الوقت كنت أفكر في مسألة اللغة الإسبانية وكيف أتعلمها بسرعة؟.

ظل يسترسل في الكلام ويشرح لنا طريقة العمل ويحاول استدراجنا في الحديث.

سأله صلاح : متى يمكننا البدء في العمل؟.

رد عليه دافيد وهو يمسك بلائحة الأثمان المعتمدة بالمقهى وقال مداعبا ستربحون الكثير من البقشيش السائح الأجنبي سخي للغاية . ثم تابع كلامه وهو يوزع علينا النظرات يمكنكم البدء من صباح الغد.

طرق فيلا مذكرة الحديث على نحو مختلف : علينا تدبير أمرنا ما جمعناه من المال في التلفيف نخسره مقابل شراء هندام والبحث عن مسكن وأمامنا هذا المساء وحده.

نظرت إلى صلاح كان ساهيا وكأن لسان حاله يقول لفيلا تماما. ولكن كيف ندبر أمرنا نحن مهاجرين سريين.

كان دافيد منغمسا في جمع الحساب في إحدى المذكرات لا شك أنها لمقتنيات المقهى.

في هذه اللحظة اقتحمنا عليه خلوته وطلبنا منه مساعدتنا، حكينا له مشكلتنا. أخرج الهاتف من جيبه اتصل بأحد أقربائه وفي سرعة البرق دخل علينا شاب أنيق وتحدث معه باللغة الإسبانية وبعدها فسر لنا بالإيطالية مع صلاح كل شيء.

السكن والهندام سيتكفل بهم الشاب علينا دفع المبلغ. وهو قريب من المقهى، يا له من فرح يتوسط اللحظة.

صوت أمي يجتاح شرايين روحي، الآن على الأقل بدأ العناء يخف قليلا ووجه أمي لا ينبغي أن يغيب أكثر من اللازم. الشوق يشق ضلوعي لأرتمي في حضن الحديث، منذ متى وأنا أتهرب بطريقتي الخاصة؟.

ارتمى فيلا على الأرض واستسلم للنوم بعد يوم متعب ومثمر في نفس الوقت. بينما صلاح يداعب مذكرة الهاتف كعادته كل يوم قبل النوم، طلبت منه أن يمنحني الهاتف للحديث مع أمي بعض الوقت. كان الوقت متأخرا ومع ذلك الصوت الداخلي يجذبني ويشدني إليها شدا. ولا أستطيع تأجيل اللقاء إلى الغد.

أدخلت بطاقتي في الهاتف مكان بطاقة صلاح وما إن تصفحت شاشة الهاتف حتى كانت علبة الرسائل تكاد تنفجر بالحجم الهائل من الرسائل المكتوبة والصوتية.

أجلت كل شيء وأرسلت النداء يعبر البحر إلى حيث يحلق رضى أمي. كان صوتها حزينا وهي ترد على مكالمتي بسؤال : هل أنت بخير ولدي، منذ زمان لم نسمع صوتك؟.

كان صوتها يفتت عروقي اشتياقا قلت لها أنا بخير أمي، فقط انكسر هاتفي وأنا الآن بإسبانيا .

ومتى تعود إلينا حبيبي؟.

قريبا أمي كيف حال أبي وضحى ومراد؟. هل كلهم بخير؟.

نعم ولدي كلنا بخير فقط أنت من تقلقنا بغيابك.

أغرقني الحديث معها في بركة الدموع، فقد فاضت عيني بكل شوق الوجود، ورق قلبي لاحتضان صباحات القرية. لكني تذكرت شامة وكيف هان عليها أن ترسل سهامها القاتلة تلسع جسمي.

بدأت أتصفح الرسائل الكثيرة الصوتية والمكتوبة وخفق قلبي لما أراه وأسمعه ها هي شامة تتقطع حزنا وحيرة وتسأل عن الغياب المفاجئ.

ولا تتمنى إلا أن أكون بخير. كيف يحدث هذا؟. أين أنت ؟. ولماذا لا تجيب على رسائلي؟.

أخبرني إن كنت في مشكلة، لا أطيق صمتك، الهواء الذي أتنفسه في القرية حارقا دونك، أخبرني حبيبي ماذا حل بك فجأة؟.

خريطة الشوق تحرق جغرافية ذاكرتي والحزن يسقيني مرارة الغياب؟.

كلمة منك حبيبي تريح النفس وترجع ألوان الحياة لروحي.

تحدث حبيبي حين ألقاك وحين لا ألقاك.

وأنا أتنقل بين رسالة ورسالة، ومن سؤال إلى سؤال يشدني الذهول. هل حقا هذه شامة التي صدمتني قبل أيام بقولها لكل منا طريقه؟. أم شامة حبيبتي التي تجري مجرى الدم هي ما تخط عبارات الحزن على طول الغياب؟.

خمنت أن أسألها وتراجعت ، قضيت ليلتي القاسية في بركة التيه وأنا أتوسد الذكرى خطفتني المواقف لكل تفاصيل اللقاء مع شامة، ولم أعثر في الشريط على مقص يثقب قصة عشقنا بالفراق، ومع ذلك كان الكلام قاسيا وموجعا بالنسبة لي عندما قالت مشاكلك تخصك وحدك.

استيقظت في الصباح الباكر وذاكرتي مثقلة بالأسئلة، لا بد هناك شيء غير مفهوم، لم يسعفني الوقت للاتصال بشامة. العمل في المقهى متعب خصوصا أننا في البداية نتمرن على كواليس العمل وخبايا الحرفة.

لست جاهزا نفسيا للنفخ في النهار وتوزيع الابتسامة على الزبناء، ولكنها الضرورة عليك أن تتظاهر بذلك على الأقل.

صورة شامة تحرث المقهى كله وتغطي كل الطاولات، حديث الزبناء وموسيقى المقهى كلها أشياء عابرة في ذاكرتي الآن، حتى أنا حضوري وحديثي وابتساماتي كلها طيف من الماضي ليس إلا. أنا في القرية الآن بكل وجداني ، بكل حركاتي وسكناتي استنطق شامة، كل ما انتظره الآن انتهاء وقت العمل.

شغلي الشاغل أن يصل وقت المداومة بسرعة، الساعة تتحرك على أعصابي ودقات الدقائق كنقطة دم تسيل من عروقي وكم من دم سيهرق في ما تبقى من الدقائق.

الانسحاب في اليوم الأول من العمل جبن، ومن غير المناسب أن يحدث هذا وبالكاد حصلنا على العمل يليق بنا كبشر. جسمي يغلي من الداخل والقلق يشل حركاتي. وأنا أردد في صمت متى ينتهي هذا؟.

اقترب مني فيلا وأخبرني أن حالتي سيئة علي الانتباه لنفسي قبل السقوط في أي خطأ مع أي زبون أو الاصطدام مع أي أحد.

خلوت بنفسي بعض الدقائق في مرحاض المقهى أرجع بعض الأنفاس وغسلت وجهي وأخذت قهوة سوداء توقظ مذكرتي وحاولت تشغيل تفكيري بالعمل وبالحديث مع أي زبون أفهم لغته ومن سوء حظي أغلب الزبناء هذا الصباح إسبان يتكفل بهم دافيد بنفسه، أنا فقط أنفذ ما يقوله لي.

لم أنتبه للوقت حتى كان صلاح في الباب، قلت في نفسي جاء وقت المداومة. أنا وفيلا سنترك مكاننا لصلاح ونادل آخر لا نعرفه.

وفي طريقي إلى البيت عرجت على أحد محلات بيع الهواتف واشتريت هاتفا بما تبقى لي من المال الذي جمعته بتلفيف الممنوعات. ولم أجد صبرا حتى أصل إلى البيت وأتصل بشامة ، بل كانت الخطوات المتبقية للبيت كافية لأسمع صوتها الحزين.

لم تترك لي مساحة السؤال في البداية كانت أذني تستقبل الكثير من اللوم على الغياب وعدم الاتصال بها.

سألتها إذا كانت أنهت كلامها : هل تسمح لي بالكلام؟.

قالت تفضل أسمعك.

كنت متعب بالتفكير وتشتت أفكاري وسألتها عن معنى الرسالة التي جعلتني أكسر ضلوع الهاتف. استغربت لكلامي هذا، وأنكرت بشكل

قاطع حتى أنها شككت في كلامي أنه مجرد تبرير للهروب من الجواب.

قلت لها بحق السماء أخبرني وقولي الحقيقة: لقد كسرت خاطري في لحظة يأس ولم أتمالك نفسي وكسرت الهاتف وكنت لحظتها كالكلب المسعور.

اسمع حبيبي منذ ما عرفتك وأنت الهواء الذي أتنفسه، وأنت الحلم الذي أعيشه، وأنت الأمل الذي انتظره، لقد خفت كثيرا لما انقطعت عني أخبارك واعتقدت أنني سأكمل حياتي وحيدة دونك. الحمد لله أنك بخير عدت إلي سالما، أما بخصوص الرسالة لا يسكنك الشك أنني أفعل هذا.

كنت قد وصلت للبيت وطلبت منها أن تمنحني بعض الوقت وأعيد الاتصال بها. ولكن قبل هذا أخبرتها أنني باسبانيا وحصلت على عمل جديد في مقهى . وأنني سعيد جدا بعملي الجديد.

فكرت كثيرا في القصة كيف يحدث هذا ؟. هل هناك عفريت كتب الرسالة ومسحها قبل أن تراها شامة ليفرق بيننا؟. وإذا كان هذا الأمر صحيح كيف حدث؟. ومن له المصلحة في تفريق قلبين وتمزيق حياتهما بهذه الطريقة الرعناء؟. أم أن شامة قالت ذلك في لحظة غضب وندمت على فعلتها ؟. ولماذا لا تعتذر مني وتنتهي القصة؟.

حتى شامة كانت تسحقها مثل هذه الأسئلة ولكنها بسرعة أخبرتني بالتفاصيل أنها حكت لجارتها قصة حبنا والغيرة بدأت تسيطر عليها ولم تجد إلا هذه الطريقة الخبيثة لتدميرنا.

سألتها كيف حدث هذا؟.

قالت : كنت أحكي لها عن قصة عشقنا وكل مرة كنت ألاحظ تغير لون وجهها. وكأنها تتضايق من عشقنا.

قاطعتها بسؤال وهل تعيش قصة حب ؟.

ردت بالنفي وقالت : كل ما أعرفه أنها لا تربطها أية علاقة مع أي شخص.

قلت لها يا بلهاء : لا نتحدث عن العشق والغرام مع من يعيش الفراغ العاطفي، ولا عن النجاح مع من هو غارق في الفشل، ولا عن الأبناء مع من تعاني العقم لأن كل حديث يفسر أنه كناية فيهم.

ولكن بماذا عرفت أنها هي الفاعل؟.

هي التي طلبت مني الهاتف لتحميل بعض الأغاني، وأحسست بها مرتبكة لما سلمتني الهاتف.

انفجرت غضبا وأخبرتها أن الهاتف شخصي لا نسلمه للغير، فيه أمور تخصنا. وها أنت كنت ستنهي قصة حبنا بسوء فهم كبير، هل تتصوري حجم الآلام التي سببتها لي، وحجم الحزن الذي رافقني كل هذه المدة؟.

كنت أسمع الدموع التي تسقي وجهها بالبكاء وقالت حزينة: حقا آسفة لم يكن لي العلم بكل هذا؟.

آه صديقتي التي حكيت لها بكل عفوية، سكنها الحقد وحاولت أن تشربني السم من كأس الثقة.

ماذا لو لم تثق ببراءتي ؟. لكنت أتنفس هواء الوجع بدل نسيم العشق. ولكن سماء حبنا كانت أنقى من كل وسخ منتشر على الأرض.

أعطتني هذه الواقعة درسا عظيما في حياتي، وخمنت أن الكثير من الناس يحدث لهم هذا، ولكن الحقيقة تدفن حينما يتسرع الإنسان في اتخاذ القرار دون السؤال، ودون الانتظار، ودون التأكد.

أحيانا لا تملك إلا أن تصدق، فكيف أعلم أن يدا مندسة على هاتف شامة كتبت بالسم. وأنا تجرعت السم ولم يكن لي من خيار.

لو كنت انتظرت قليلا كانت رسائل شامة على الأقل تبدد الحزن بداخلي وتؤنس اللحظات العصيبة التي عشتها متنقلا بين التيه والضياع في بركة أوربا.

عكرت هذه الواقعة مزاجي وكدت أختنق، وخمنت أن شامة لن تتمالك نفسها، سوف تمرغها لا شك، لا أريد أن تدخل في حروب مع الجيران حول هذه الواقعة. ولكن هي محقة في أية ردت فعل.

هذه جريمة لا ينبغي السكوت عليها. الإنسان عليه أن ينتبه لمن يرمي أسراره وفي من يودع ثقته.

حاولت رسم صورة واضحة عن سناء، فتاة بدينة علامات الشقاء واضحة على وجهها، وكأنها تحمل جبل الهموم على أكتافها، عبوسة على الدوام كلما رأيتها في القرية كنت أرى الشر يحلق على المكان.

وأنا أسبح في التفكير قاطعتني شامة بسؤالها عبر رسالة صوتية

على الواتساب : كيف أتصرف معها؟.

اشرحي لها كم هو دنيء وبذيء هذا السلوك...

سوف أخبرها بذلك

لا يكفي ...

وماذا بعد ؟.

أن تضعي مسافة بينكما، لا تكوني مغفلة بعد الآن؟. افعلي هذا من أجل تحصين علاقتنا وحماية حبنا.

هذا ما أريده بالضبط ... بكل حزم سأفعل.

لا تدخلي معها في التفاصيل. الإنسان الذي لم تضبطه متلبسا بالجرم، سيدفعه مكره إلى فعل أي شيء من أجل الهروب ولن تصل إلى نتيجة.

منذ مدة وأنا أشك في سناء، ولكن كما قلت كيف أضبطها متلبسة؟. والآن فهمت كم كانت مبتهجة على انقطاع التواصل. فقد كانت تثير الريبة في دواخلي بحشر أنفها في الصغيرة والكبيرة.

ولكن أنت من فتحت لها العلبة السوداء دون موانع.

صحيح أنا من سمحت لها بذلك.

وهي تراجع شريط الأحداث بينها وبين سناء انتبهت لمحاولة زعزعت مشاعرها وتلويث دماغها بالشك، فكم من مرة حاولت زرع بذرة الشك في قلبي. أنك ستتزوج هناك وتتركني أنتظر الفراغ. فقد كانت تقول

لي دائما بنات أوربا كالنحل ، رائحة السكر تخرج النحل من جحورها، والمهاجرين يجذبن بنات أوربا.

انتهت حكايتي مع شامة لكني فهمت أنها مباشرة أسرعت الخطو إلى بيت الجيران وكما أخبرتني من خلال التسجيل الكامل للحوار الذي أرسلته إلي صوتا وصورة.

بعد طرقات الباب لمرات قليلة كانت سناء تنادي شامة بالدخول. دخلت شامة ومن غير المتوقع كانت مبتسمة ونسائم الفرح تتوزع على منزل الجيران أطلقت زغاريد خفيفة. كانت سناء كما توضح الصورة تسوي وقفتها لتعانق شامة ظنا منها أنه جاءها خطيب على غفلة.

لكن شامة رمت في حجرها كومة من الكلام الغامض. أنا اليوم سعيدة جدا، جدا. وبما أنك صديقتي التي لا أخفي عنها شيء سأخبرك بكل شيء...

سناء تتابع بشغف كبير وتسمرت عينها على شامة التي قالت : اليوم تكلمت مع أحمد .

باستغراب سألت سناء : كيف حدث هذا ؟. منذ مدة وأنتما مفترقان...

ضحكت شامة استهزاء من سناء وقالت : كما يتكلم كل عشيقان بعد سوء فهم، بعد أن تشرق شمس الحقيقة وتحرق خيط الحقد الذي يلفه البعض في طريقهم.

ردت سناء باستغراب مبالغ فيه : لم أفهم من كلامك ماذا تريد قوله؟.

ما أريد قوله هناك أفعى تلوت على عشقي ونشرت السم في جسم حبيبي في غفلة عني، لكن ترياق براءتي كان شفاء وبلسم لحبنا.

ومن تكون هذه الأفعى التي فعلت هذا؟. قالت سناء لتبعد التهمة عنها ... بهدوء غير متوقع أجابت شامة : كم وددت التصديق ولكن الحرباء تتلون مع الألوان. ويحدث غباء أو ثقة أن نحسب البعض أصدقاء ولكن الأيام تكشف الغلط الكبير الذي يذبح تلك الثقة.

هل أنت مجنونة قالتها سناء بتعالي .

كنت مجنونة لما تصرفت بغباء أما الآن سأكف عن حماقتي.

لا أعرف ماذا تقصدي ؟.

معذرة رأسي مشوش ... تريد أن تعرف قصدي. طيب أيتها الصديقة المخلصة، هاتفي تفوح منه رائحة الغدر، منذ اليوم الذي لا مسته العفاريت وحاولت تمزيق الورقة التي كتبت عليها حلم حياتي.

إن شئت أحلف لك بشرفي، لم أفعل شيء كهذا ...

مضحك أمرك، يا لك من فاجرة، قاطعتها سناء بما أنك عرفتي القصة لست نادمة.

الآن تفاهمنا ، أخبرني ما قصتك معي ؟.

تنهدت سناء وقالت : كنت أعشق أحمد وأنت خطفته مني ، وفوق

هذا تأتي كل يوم وتشعل نار العشق بداخلي ماذا تنتظر مني أن أفعل؟.

انسحبت شامة وتركتها تبكي دون أن تقول لها شيء. رميت الهاتف من يدي وقلت الحمد لله الذي لم تنقض علي قبل أن تطل شامة. ولكن صخرة الوادي كانت تفيض حظا لما مسكت شامة ورمتها في بحر عشقي.

ها هو البنفسج يتلون، وقطرات الندى التي تبلل سماء مدريد يغويني على احتضان الذكرى، وشامة أجمل ذكرى.

لسوء حظي المعلم زياد سيقضي المساء بالمقهى هو وزوجته التي لا تفارقه كظله، لكنها هادئة ، صامتة لا تتكلم إلا عند الضرورة. يتابعنا بعينيه ويوجهنا أحيانا، أحس بالارتباك والحرج خصوصا عندما يأتي زبون لا أفهم طلبه ويتدخل بنفسه ليشرح لي الطلب.

العمل في المقهى مختلف تماما عن بقية الأماكن الأخرى، خصوصا المقاهي التي توجد في المناطق السياحية زبائن من مختلف الأعمار والأجناس وعليك الانسجام مع كل الطباع ، رأسمال المعلم زياد هو الزبون وبحضوره عليك أن تتصرف بحذر شديد.

فجأة نادت علي زوجته و سألتني بأدب : من أي مكان أنت بالمغرب؟. لغتها العربية ولهجتها تخبرني أنها ليست غريبة عني. ابتسمت وقلت لها من نواحي مدينة شفشاون .

ابتسمت وقالت نحن قريبين لست بعيدة عنك. وأقفلت شفتيها وأنا ما أزال أحدق فيها ، سرني حديثها ولم أتجرأ سؤالها هل تقصد بقريبين أنها من نفس المنطقة. ولكن رأيت أنه من المبكر التطفل على زوجة المعلم. شكرتها وانصرفت إلى العمل، كنت أحس أنها تراقب حركاتي.

استمر الوضع تقريبا شهر ونحن نعيش نفس النمط، يتوزع وقتنا بين التنقل في المقهى نتقفى طلبات الزبائن وجمع البقشيش، وبين البيت الصامت الذي لا يتوفر إلا على فراش بسيط نرمي فيه أجسادنا بعد تعب العمل، وبعض الأواني التي تفي بالغرض لثلاثة أشخاص.

تولد لدي إحساس بأن الزمن يسرق عمرنا ونحن نكرر نفس الأدوار، ما أراه في المقهى من تصرفات تزعجني. أشعر أحيانا بأن الحياة قاسية، رمتنا إلى غيمة معلقة في سقف المجهول، وأحيانا الأمور تسير على نحو اعتباطي ونحن فقط نصادف الجانب الذي يروي شغف المغامرة.

البعض يملك الجرأة للمغامرة ويثور على جبنه ويخرج من الطوق الذي يلف بالتقاليد ويكبل الإبداع، والبعض الآخر يثور من أجل الهلاك وهي المغامرة البليدة. لكن أنا مختلف لست مع الطرف الأول ولا الثاني، وضعيتي لا تسمح لي برؤية نفسي. كل الزوايا مقفلة ، أنا فقط أجرب وربما حياتي كلها تجارب، من تجربة إلى أخرى يسحقني المسير ومع ذلك لن يسكنني القنوط والملل هذا أفضل من لا شيء .

بدأنا نتدرب على العمل بسرعة وكسبنا علاقات كثيرة وسجلت ذاكرتنا طرائف عديدة مع الزبائن، بعضهم يفجر غضبه على النادل فقط ليرمي ساديته على ضعفنا، تلك السادية المقيتة التي يتجبر بها البعض خصوصا الذي يعتقد أن ماله يجعله يتصرف في المقهى كأنه حاكم مملكة، لم يكن سهلا في الكثير من الأحيان تقبل الإهانات والشتائم ، هذا إذا لم يرمي في وجهك ما بيده، كتلك التي صفعت فيلا لمجرد أنه تأخر بعض الشيء.

بقي هذا الحدث معلق في ذاكرتي لكن فيلا تعامل بلطف معها وانتقم بطريقته الخاصة، للنادل وسائله يصرفها مع الزبون. فقد بصق في

العصير وقدمه مبتسما للزبونة التي صفعته.

لم يكن هذا هو الحدث الوحيد الطريف الذي حدث لنا بل هناك من يصب القهوة على الطاولة عمدا ويدعي أنه لم ينتبه ويرغمك على تنظيف المكان وطلب قهوة جديدة، وفوق هذا عليك أن تبالغ في التأدب ورفع عنه الحرج.

لكن هناك البعض لطيفين وكرماء تتمنى قدومهم كل مرة، تفرح لمجيئهم تخدمهم بكل تفان وحب، فالكثير منهم يترك هدايا ثمينة للنادل أو بقشيش سخي دون أن تتوقع منهم ذلك.

كنت أتحسر كثيرا حينما أرى بعض الزبناء يتعاملون مع فيلا باحتقار لبشرته السوداء. مع العلم أنه شعلة من الإنسانية والأخلاق، لا تعرف حقيقة البشر إلا عندما تعاشره مدة طويلة في الظروف الصعبة وتسكن معه في نفس البيت وتتقاسم معه كل تفاصيل الحياة. لكن بشرته السوداء كانت تجلب له العناء النفسي وسط قوم لا يفقهون في الإنسانية إلا اللون.

الإنسانية لا لون لها ولا فضل لأبيض على أسود ولا أسود على أبيض، ولا أبيض على أبيض، هو يعمل بعرق جبينه وخدوم فوق ما يمكن أن تتصور.

كان الجو بارد في سماء مدريد ونحن نتبع التوجيهات حرفيا سواء من دافيد أو المعلم زياد نفسه والأمور في المقهى تسير على نحو جيد.

طلبني المعلم زياد وكانت هذه هي المرة الأولى التي يجلس فيها وحده دون زوجته، جلست بجانبه وآلاف الأسئلة تحفر دماغي، وبدأ الارتباك يساوم اللحظة.

قال لي : قمت بعمل رائع في المقهى ، ومن حقك أن تنال الجزاء. سنحتفل غدا معا.

أحسست بشعور متناقض، فبقدر ما أفرحني الخبر ، بقدر ما شدني الغموض حول طبيعة الاحتفال ولم أجرأ على سؤاله. بل اكتفيت بالقول شكرا لك المعلم مع ابتسامة عريضة، كل ما تعلمناه من دافيد هو أن المعلم زياد لا يحب الأسئلة فقط عليك تنفيذ ما يقوله. ويحب أن تشكره وتقول له المعلم خصوصا عندما تكون معه زوجته، كم يحس بالفخر والعظمة.

مر الوقت سريعا وانتهت المناوبة ، دخل صلاح بينما أنا وفيلا جاء دور مغادرتنا المقهى وعقلي مكبل بالأسئلة، في الطريق إلى البيت لم يكن من نقاش غير هذا، ولماذا فيلا مستثني من الخبر. وعلينا انتظار الليل لنفهم هل صلاح هو الآخر سيحتفل معي؟. أم لا خبر له مثل فيلا؟.

لم يكن لنا أي تصور ولا فكرة أو تأويل لهذا الكلام، هل يجس النبض؟. قد يكون هذا صحيحا ولكن ما الفائدة؟.

صلاح سيأتي بالخبر اليقين، وزف الخبر على مائدة العشاء أن اليوم الموالي هو يوم فاصل في حياتنا. غدا سنتوجه إلى مقر البلدية لقد قبل المعلم تشغيلنا بشكل رسمي. وفوق هذا نحن الثلاثة لن نفترق، سنبقى في المقهى مع بعضنا.

نسيم الفرح يطل أخيرا من سماء أوربا، لم أصدق أنه سيحدث هذا سريعا، رافقني الفرح الليل كله، وكانت نومتي الأولى بأروبا على وسادة الفرح.

لم يخطر ببالي أن ييسر الله لي هذا الأمر بعد كل هذا العناء والشقاء الذي عشته في أوربا متنقلا من بلوى إلى بلوى أشد، ولكني اليوم أمسكت بالحلم، ها هي مدريد تبسط ذراعيها لاحتضاني وكم أتمنى لحظتها لو أملك من المال ما يجعلني أساوم الفرح بزرع البسمة على كل القلوب البئيسة.

قد يبدو لأول وهلة لمن يعيش تجربة الغربة والبعد عن الوطن والأهل أنه إنجاز عظيم للمعنى الرمزي الذي يحمله، فهي ليست مجرد أوراق في الجيب، بل هو استقرار نفسي وانعتاق من السرية إلى العلن، إحساس غريب مثل سجين محكوم عليه بطول السنين ولحظة جاءه العفو.

القلب المنشرح وحده يغرف الأسارير المطلة على اللحظة، ونحن نحتفي بالحدث التاريخي في حياتنا، تكمن قيمة الأحداث التاريخية في ما تمثله لنا من رمزية فالشعوب تحتفل بالأعياد الوطنية كعيد الاستقلال مثلا لما له من معاني في وجدان الشعوب. والإنسان يعيش تاريخين تاريخ

الجماعة يتقاسم معهم التاريخ الإنساني والأحداث المشتركة، وتاريخه الخاص كعيد ميلاده والمناسبات التي تخصه وحده وهو نفس الأمر معنا الآن يستحق هذا الحدث كل الابتهاج والسعادة لأنه مفتاح معانقة الكثير من الأماني والأحلام التي رسمناها كمهاجرين على الأقل.

الفصل السابع

في صبيحة يوم الاثنين، الجو بارد وقطرات الندى تبلل شوارع مدريد، السماء الزرقاء الزاهية تحتضن فرحي.

المعلم زياد يلبس معطفا شتويا وبجانبه زوجته المغربية مبتسمة وتوزع نظراتها علينا نحن الثلاثة. هذه المرة هي من تقود السيارة والمعلم زياد بجانبها طلبت منا الركوب في الخلف. كان الحديث المتقطع في الطريق بين العمل في المقهى وظروف المهاجرين، ومخلفات كورنا الاقتصادية وغيرها. وصلنا إلى المقاطعة دخل المعلم زياد في البداية وحده وأخرج ثلاث استمارات ووزعها علينا وطلب منا تعبئتها في ما هو عبء الاستمارات الخاصة به .

وكان لزاما على المعلم زياد أن يبرر حاجته إلى خدماتنا ورغبته في تسوية وضعيتنا القانونية ليؤشر الموظف على طلباتنا. وهو ما جعل الموظف يطلب من المعلم زياد تحرير عقد شغل بيننا يوضح فيه مدة العمل والثمن وكل الشروط والتفاصيل التي يمكن الرجوع إليها عند الضرورة. وهو ما قام به المعلم زياد بالفعل ، فعقد الشغل يسمح لنا بالإقامة مدة عامين ويمكن تجديده في مرحلة ثانية إلى خمس سنوات وهكذا.

وعندما انتهينا من المقاطعة توجهنا إلى المقهى وفي الطريق كان المعلم زياد مبسوطا أكثر منا وهو يسترجع شريط معاناته كمهاجر سري بأروبا قبل أن يكسب المال ويستثمر في مشاريع سياحية، وبين الحين والآخر كان ينظر إلى زوجته مبتسما ويقول هذا بفضل مساعدة زوجتي بعد اللّه.

أما هي فكانت تكتفي بالقول عليكم بالصبر ثم الصبر ثم الصبر. الأمور في أوربا ليست هي إفريقيا ولا غيرها هنا العالم مختلف تماما.

وصلنا إلى المقهى ونادى المعلم زياد على دافيد وقال له : الشباب اليوم في عطلة المأكل والمشرب اليوم سيكون على حسابي.

أخذنا طاولة في ركن المقهى وجلسنا نحتسي قهوتنا نتقاسم الفرح في ما بيننا. قال فيلا : اليوم عيد ميلادي أحس الآن أنني إنسان، أما صلاح فقد عبر عن فرحه بطريقته الخاصة من خلال صفحته على الفايسبوك بعدما أخذ صورة لنا نحن الثلاثة علق عليها : "بعد اليوم لن نختبئ كالفئران في جحور أوربا، لقد أشرقت شمس صباح الاثنين معلنة هبوب نسائم عطرة على قلوبنا شكرا المعلم زياد على ثقتك نتمنى أن نكون عند حسن ظنك".

اليوم الجميل لا ينبغي أن يكون خاليا من الوجوه الجميلة هكذا حرضتني نفسي على اشتعال الشوق بداخلي، أمي تستحق هذا الخبر السعيد وشامة أغلى ما تتمنى هو الهدوء لتركب منصة الحلم لقد طال انتظارها.

طلبت الإذن من صلاح وفيلا للخروج إلى فناء المقهى للتحدث مع عائلتي بعض الوقت، كان الجو باردا ولكن بداخلي دفئ غريب وحرارة الشوق تحرق شعيرات جسمي وتفتت وجداني لم تطول رنات الهاتف فقد كان صوت أبي على موعد المكالمة .

آلو أمي ، بضحكته المعهودة قال هذا أنا ، ولم يترك لي مجال الحديث فقد باغتني بقوله : تريد الحديث فقط مع أمك.

قلت له : أستغفر اللّه أبي وهل لي أب غيرك ؟. أسأل اللّه أن يطيل في عمرك ويشد لنا في صحتك .

فقط أمزح معك ابني العزيز ما يهمني هو أن تكون بخير قالها مداعبا، وفي هذه اللحظة خطفت منه أمي الهاتف وقالت : آهلا ابني الغالي اشتقت إليك وكان صوت ضحى ومراد يسبقها متى تعود أخي اشتقنا إليك كثيرا، توقفت هنيهة عن الكلام فقد شعرت بضعف اللحظة تجتاح كياني وتملكني الشوق وأيقظ الحماس بداخلي إلى زيارتهما. قلت لهم جميعا لم يتبقى الكثير قريبا سأكون معكم بمشيئة اللّه.

عندما هممت بالدخول أثار انتباهي مشهد رومانسي جميل شابين يداعبان اللحظة بكل ما تشتهي قلوب العشاق، استوقفتني اللحظة على شوق شامة، وجدت نفسي فجأة أفتش بين الكلمات عن صوت يوقظني من هذا الشوق، وكانت شامة أسرع مني لا أعرف إن كان قلبها خفق لندائي الصامت ونسائم الفرح المنتشرة في كل بقاع مدريد أخبرتها بحاجتي لرمي الوهج الطفولي على قلبها.

شامة تشبهني تماما في سرعة غضبها وفرحها، بقدر الغضب بقدر الفرح، الأشياء البسيطة تفرحها والهفوات التي لا تنتبه لها تغضبها، ولكنها طيبة وصبورة فوق التصور.

كنت أفكر دائما كيف ستتحمل البعد، وها هي تكبر في عيني عندما أمسكت بفطيرة الحب ولم ترغب في سحقها أو رميها أو شرب غروب المساء على العتمة كما تفعل الكثير بمجرد غروب الشمس، تبحث عن صباح تجرب

فيه حظ النهار. لكن شامة كانت تقرأ الحقيقة على قلبها ولم تشك يوما أنني سأخذل حبها.

كان حديثنا مختلف هذه المرة ، كان ناضجا ومفعم بالحكمة لأن الفرح الداخلي يصنع المعجزات. حتى أننا تحدثنا في كل التفاصيل، اليوم أحس فعلا أن الوجود مختلف وأنه يمكنني الجواب على الكثير من الأسئلة المخبئة في تفاصيل القدر.

الإنسان يشفق على الذكرى حتى لو كانت حزينة، واليوم أنا أسجل أجمل ذكرى ستغطي النهار كله، ولا مجال للقبح أن يطل على اللحظة.

دخلت وكان الوقت قد سرقت منه الكثير في الحديث مع عائلتي وشامة، بينما صلاح وفيلا انخرطا في نقاش مع الكثير من الزبناء حول القضايا الساخنة انتخابات أمريكا ، كورنا، ومسلسل التطبيع وغيرها من القضايا ولكن أنا مفعم بالحلم ولا أرغب أن تندس الأفكار القبيحة وتسرق مني اللحظة.

في الطاولة المجاورة لنا يجلس شخصان ويناقشان بصوت مرتفع، فهمت من حديث أحدهما أنه مستثمر جديد وكبدته كورنا خسائر كبيرة، فقد كان صوته الغاضب يملأ جنبات المقهى، وهو يقول لصديقه : العالم مجنون، ما هذا الغموض الذي ينتشر في سماء الوجود، الصين انطلق منها الفيروس ، مات الطبيب، انتشر الفيروس في العالم ، قالوا يموت بالحرارة ارتفعت الحرارة مات الناس والفيروس يزيد انتشارا، قالوا الكمامة مضرة ،

بعدها الكمامة ضرورية، قالوا ينتشر من فوق السطوح ، ومع الريح ، وبعدها فقط عن طريق الاحتكاك المباشر، قالوا تؤذي فقط كبار السن وقليل المناعة، مات الشباب والصبيان، ومن هم في صحة جيدة.

بسرعة البرق كانت سلع الصين تغزوا العالم اللباس الواقي للأطباء، آلات التعقيم ، وآلات قياس الحرارة في كل مكتب وكل مؤسسة. متى صنع هذا الحجم الكبير من السلع؟.

أمازون يحقق أرباح خيالية، شركات كبرى تضاعف أرباحها والاقتصاديات الهاشة تتلقى الضربات القاسية، كما المستثمرون الجدد مثلنا.

قاطعه صديقه مازحا : سينتهي شبح كورنا لقد خسر ترامب الانتخابات وبايدن سيقضي على الفيروس.

أجابه غامضا : ما علاقة هذا بهذا؟

ضحك صديقه وقال : من الصباح وأنت تعجن السياسة بالعلم والواقع بالخرافة وتتنقل من عالم إلى عالم ... فهمت من تحليلك أن هناك أيادي خفية لها رغبة سياسية واقتصادية وغيرها من الوضع أليس كذلك؟.

وضع يده على رأسه وقال : لقد اختلطت الأمور لدي لا توجد هناك أية دراسة علمية تثبت أن الفيروس طبيعي ولا مصنع ولا غيره ... فقط تفسيرات حسب الهوى. وأنا فسرت الأمر من منطلقي الخاص، أنا المتضرر وأمثالي كثير يصرخون في صمت، ولكن الجهة التي تملك القرار تستفيد

من الوضع : كيف، هذا ما أجهله؟.

تابعت هذا النقاش الساخن وتأملت الوضع وقلت لنفسي فعلا: الكل يشتكي من تأثيرات كورنا، ولكن طبعا هناك جهة في الخفاء تربح من الوضع كما سمعت الآن.

وقصة الكمامة غريبة جدا، كنا نسمع عن التكميم الرياضي ، يعني تحويل الظواهر الطبيعية إلى صيغ وعلاقات رياضية كمية. والآن ها هو التكميم الإنساني يحول البشر إلى آلات صماء، فضيحة كبرى لا تقل خطورة عن تلاعب بجينوم الإنسان في علم الأعصاب.

البشرية تدفع ثمن حماقات المتهورين، هل نصدق عجز العلم عن كشف حقيقة الفيروس؟. وهل نصدق كذلك أن الساسة فشلوا في تطويق الفيروس؟.

أكبر فساد ظهر على وجه الأرض هو كورنا، وهو فعل آدمي ماكر، أما التفسيرات العاطفية التي تفاعلت في البداية على جميع المنصات باسم المناخ، وباسم الدفء العائلي، وبأسماء لم نسمع لها في فلك العقل. اللعنة على من دسها في الجسم البشري، واللعنة على طواحين العاطفة الذين يجترون الخرافة ويقفلون نوافذ التفكير.

ولكن من يقول الحقيقة للناس، أن كورنا فيروس علينا أن نتعامل معه بكيفية مختلفة ولكن ليس بالزخم الإعلامي المبالغ فيه، وتطويق الاقتصاد، ولي عنق النضال. الشارع خالي من أية حركة احتجاج وغيره من أشكال الرفض.

أصبح الجميع يساق كالقطعان بمجرد كلمة رجل سلطة، وقوانين الطوق تتسابق حالة الطوارئ هنا وهناك، ومشانق تنصب في كل مكان لخنق الحرية وكل القيم الإنسانية التي ناضلت البشرية سنين طويلة عليها. ها هي الآن تحرق بكلمة واحدة ادخل بيتك.

غريزة البقاء وحدها من تتربع على عرش الوجود، وساقت البشرية إلى التنازل عن كل القيم والحقوق مقابل البقاء.

هوبز كان ذكيا عندما افترض حالة الطبيعة ليفهم الطبيعة البشرية للإنسان من أجل صياغة قانون ملائم لهذه الطبيعة. وإذا كانت غريزة البقاء حسب هوبز يصعب التنازل عنها، ففي المقابل يمكن لهذا الإنسان الذي يلتف على هذه الغريزة بشكل بهيمي أن يتنازل على كل شيء إذا ما تم ترهيبه وترعيبه بأن الموت يحيط به من كل جانب.

آه، يا هوبز لقد فتحت أعين الوجود الإنساني على الشقاء، وأنت ترسم خريطة الحكم المطلق، فقد كانت شهية العابثين مفتوحة ورسمت البلوى على سبورة المعمور كما لو أن الجميع مجرد قطيع يمكن أن يروض بالتدريج وقابلية الطاعة كانت فوق التصور، فقد كانت الأبواق الصارخة بالعبث تزاحم الغزاة الجدد. فالكثير لا يملك إلا حساب وهمي على الفايسبوك ويملأ الدنيا ضجيجا بالتوسل إلى العبودية والحنين إلى التسلط وكأن جينات العبودية مزروعة في عروقه.

عندما تفتح صفحات الفايسبوك ترى الكثير تحولوا إلى حراس

للاستبداد، نصبوا أنفسهم خدام طيعين للدفاع عن كل القرارات التي ترسم الخوف في كل الطرقات، لن تجدي الحيرة مع هذا الزخم من الانفلات والزيغ عن الطريق. يمكن أن نفهم أن الفيروس خطير كما يروج له، ويمكن أن نفهم ونتفهم حالة الطوارئ المفروضة على الشعوب، ويمكن أن نتفهم تقنين العقاب للمخالفين. كل هذا وان لم تستشار فيه الشعوب وكل دولة أخذت المقص وبدأت تفصل في القانون حسب ما تمليه اللحظة يمكن قبوله إلى حد ما، بما فيه من إلتفاف على إرادة الشعوب وتجميد روح الدساتير بعلتها وعيوبها والقفز على الكثير من الصلاحيات، وتهميش الكثير من الفاعلين ووضعهم في الثلاجة مع وقف التنفيذ . لكن الشيء المقزز هو تصوير وتوثيق عمليات سلخ المواطنين وإهانتهم وممارسة عليهم كل أشكال العنف من سب وضرب، وحجم التصفيق للجماهير على صفحات الفايسبوك للقائمين بهذه المهمة. وأصبحت البطولات المخزنية تتلقفها الصفحات ليس من أجل الإدانة والرفض. بل من أجل النفخ والتهليل، وأغلب الصفحات تحولت إلى بوق تتبع خطوات التطبيل بما في ذلك من تقزز.

تخرج المعاناة من رحم المأساة، والجغرافية العربية في حاجة إلى جرعات كافية من الوعي، ولكن من يملك عصى موسى ليهش بها على القلوب المغفلة، أو خاتم سليمان ليمنع عفاريت المافيا من الترهيب والوعيد لكل من سولت له نفسه نشر الوعي بين الناس.

للجلوس على مائدة الأقوياء ، لا بد من تشغيل العقل، بدل تشغيل آلة القمع. وتوفير الظروف الملائمة لفتح صنابر الأسئلة المزعجة. فالخوف من الأسئلة لا ينتج إلا الضعف والهوان.

الواقع العربي انحدر إلى القاع، والهوة عميقة بين مرآة الوجود وبين ما هو موجود. من ينتج كل هذه الصراعات المذهبية، والسياسية، والعرقية ... ليس هناك نموذج أفضل من ذاك لنقاتل من أجله، الاندفاع العاطفي والتبعية الهوجاء يجعل المنطقة على عتبة الفناء.

كل واحد لا يعرف ما يفعل بنفسه وينتظر سماء الغرب أن تمطر عليه بالفتوى، هذه هي البلوى التي ابتليت بها الجزيرة العربية، متى ينبت الزرع العربي، ونأكل الفطيرة العربية؟. ومتى ينتهي مسلسل التخدير من سحق العقول؟. ومتى يطوي البحر قصص الاغتراب؟.

كلها أسئلة حارقة لم يكتب لها البوح على منصة الاعتراف بأن الشبح المخيف مجرد شماعة لشيخ القبيلة ليفتل الغنيمة وحده.

يا شيخ القبيلة الأرض التي نعيش عليها خيراتها تكفي لملء بطون المعمور، فكيف لا تكفي لسد رمق بضع أفواه جائعة تتسول المهانة في دروب أوربا وغيرها من شوارع العالم. والأموال المكدسة في بئر القصور

تكسي الرقعة الجغرافية لو فتحت الأبواب لاقتسامها.

يا شيخ القبيلة أفهم النقاش في هذا محضور والقضية محالة على القضاء، وقصاصات القلق تخنق الصحف، ولكني مجنون كما ترى، وعنيد ولكنه السؤال الموجع أشعل دفتر اللحظة.

الحياة تبدأ بالسؤال وتتربع على عرش الدهشة، لا أرغب أن أعيش بلا سؤال حتى لو كان اللقاء المفترض بين السؤال والجواب في هذه البقعة محكوم عليه بالفناء. كما تدهشني المواقف الغريبة، والعبرة في الدهشة وحدها تسوقنا إلى بر الأمان ، وإن كان هذا الأمان هو الدهشة نفسها . فالكثير يعتقد أن أمان الحياة هو مأكل ومشرب ومأوى، ربما هذه الصورة تم وضعها بإتقان في ذهن الشعوب، وهي الحقيقة الوحيدة التي تمرح في عالم الوهم والزيف. وغاية الحاملين لهذا الشعور هو انتشاء لذة في غفلة من أعين المتمردين. وكما تسرق الحياة يسرقون الوعي من كل لحظة خاطفة، ويقذفون به إلى الفناء، حتى تكاد تسلم أحيانا بأن قدر هذه الأرض أن تعيش العبث، ولا تعرف من تصارع هل الماسكين بالقضبة الحديدية؟. أم الذين من أجلهم ترمي نفسك للخطر؟. فالطوق يشد وثاقك من كل الجهات فمن صنع هذا المشهد بكل إحكام ودقة؟.

تمر الأيام ثقيلة كسلحفاة تحمل فوقها جبل الهموم، وترغب في رمي حملها، هذا هو حالي الآن ، قبل سنوات كان عقلي معلق بسماء أوربا وكنت أمني النفس بالهجرة، واليوم الصورة عكسية شمس القرية ونسيم صباحها وعشق شامة وروحها العطرة من ترهق تفكيري.

ومن غير المتوقع جاءت المفاجئة وكأنها هدية من السماء، اللّه وحده يعلم ما بداخلي من سعادة وسرور لهذا الخبر السعيد.

بينما أنا منهمك في عملي الذي أحببته ، كنت أعتقد في البداية أن العمل في المقهى كنادل يجعل مني مجرد خادم حقير في مملكة الأسياد. ولكن مع الوقت فهمت الكثير من الخبايا والأسرار ، المقهى غابة كبيرة يأتي إليها كل أصناف البشر مع الوقت تفهم الطبائع وتتكيف مع الوضعيات المختلفة وتصبح محترفا. كثيرا من الزبناء يصبحون مثل العائلة وسخائهم الكبير يشجعنا على الاستمرار.

اقترب مني دافيد وقال لي زوجة المعلم زياد تطلبك على عجل .

أسرعت الخطو ، زوجة المعلم لا يمكن أن تنتظر حتى لو كان في يدي طلب زبون. لم تترك لي مجال السؤال بعد التحية قالت مبتسمة: لا شك أنك اشتقت إلى أهلك أليس كذلك؟.

قلت لها طبعا سيدتي ولكن ظروف العمل لا تسمح لي بالذهاب الآن.

صمتت قليلا وقالت : يمكنك الذهاب إذن ، عندي بعض الأعمال في المغرب وأحتاج إلى شخص ثقة يقوم بهذا العمل بدلا عني كما ترى لا يمكنني الذهاب الآن وترك المعلم زياد وحده.

كنت أطير من الفرح ولا أعرف ما أقول : ها هي زوجة المعلم تؤشر على منسوب الثقة وهذا وسام شرف لأي عامل مبتدأ خصوصا إذا كان في أرض الغربة، وفوق هذا هي فرصة غالية لأرتوي من رضى والدي وعشق شامة.

قلت لها : أنا جاهز سيدتي لكل ما تراه مناسب.

رتب أمورك في هذا الأسبوع تسافر إلى المغرب بإذن الله قالتها وانصرفت، بينما أنا أصبحت مثل طائر يحلق في سماء الحلم، ودون شعور مني أخرجت الهاتف من جيبي وأرسلت الخبر يشق ضلوع البحر ويرشق سماء القرية ويداعب وجدان شامة وفرح عائلتي .

شامة تطير من الفرح والفرح، أسبوع من الآن فقط يفصلها عن

معانقة العشق الذي غرد بعيدا عنها في سماء أروبا.

اتفقنا أن يكون أول لقاءنا بعد العودة في النهر عند صخرة الحظ. واعترفت شامة أنه عندما كان يشدها الشوق كانت الصخرة الملاذ الوحيد الذي تلتجئ إليه في غيابي وكم شكت وبكت للصخرة البعاد والهجر. وقالت لو كانت تنطق لأخبرتك بكل شيء.

ارتميت في حضن اللحظة أرتشف الفرح المتساقط على وجداني، كانت أعماقي تنتشي الفرح بصدر منشرح وأنا أوزع الابتسامة على الزبناء، اقترب مني فيلا متسائلا عن سر الوهج الذي يملأ المقهى، أخبرته بكل التفاصيل. أسره الخبر وعانقني بكل حرارة الوجود وقال لي ضاحكا : أخاف أن تكبلك شامة بقيد حديدي ولن نراك بعد الآن. ضحكت بدوري ولم أتمكن من إجابته لأن زبون كان ينتظر.

جاء صلاح باكرا قبل موعده خمنت أن فيلا أخبره عبر الهاتف. وكان مسرورا هو الآخر وعانقني وهنأني وهو يردد : " إن بعد العسر يسرى، إن بعد العسر يسرى ..." أجبته صدق الله العظيم. قبل أن أضيف وأنا أنظر إليهما معا : ان شاء الله يأتي دوركما قريبا.

لم يكن من حديث في الليل سوى عن الهدية التي يمكن أن تليق بشامة وهدايا أخرى للعائلة وخصوصا أمي وأبي وضحى ومراد. كانت الاقتراحات بيننا تأخذ منا وقتا طويلا. ثم عن الأشياء الأخرى كالسيارة فقد نصحني صلاح أن لا أذهب بدون سيارة سيكون من غير المناسب بعد كل هذه المدة الطويلة في أوربا أن تذهب دون سيارة. أدخلنا هذا في نقاش

آخر عن نوع السيارة وثمن الكراء والمدة والضمانة وغيرها فقد كان كل واحد منا يتنقل عبر صفحات الإشهار بحثا عن عرض يتناسب مع وضعيتي.

في الصباح كانت شوارع مدريد مرصعة بالبياض كبياض فستان شامة يوم زفافنا المرتقب، منظر جميل يرسم لوحة الصباح في أيام مدريد الجميلة، صلاح غادر البيت إلى المقهى بينما فيلا يرافقني في التنقل بين المحلات القريبة للتسوق، قطرات الندى تداعب وجداني ورجلي تنغمس في بركة الثلوج التي تزين شوارع مدريد ، وأنا أتنقل من محل إلى آخر بحثا عن هدايا تليق بعائلتي وهدية لشامة قبل أن يوقفني صوت الهاتف ويطلب مني دافيد المجيئ للمقهى على وجه السرعة زوجة المعلم في انتظاري.

هرولنا أنا وفيلا في اتجاه المقهى، كانت بانتظارنا بعد التحية سلمتني حقيبة مقفلة بإحكام وقالت المعلم زياد سيشرح لك التفاصيل في المساء وانصرفت. قلت لها أنا جاهز من الآن.

لم أعرف كيف أتصرف في الوقت الباقي الذي يفصلني عن وجه عائلتي وشامة التي تلونت سماء مدريد بوجهها. خفقان قلبي لا يتوقف عن رشق العشق الملتهب بداخلي.

اختلطت دموع الفرح بالحزن ، فرح زيارة عائلتي وحزن فراق صديقين عشت معهما كل الظروف الصعبة وتقاسمت معهما مرارة الحياة وقساوتها ، تجرعنا كل الوجع وشربنا ألوان الحزن من نفس الكأس. قبل أن تفتح سماء مدريد ذراعيها لانتشالنا من بركة الضياع، واليوم الحمد لله نتنفس هواء الحياة.

اشتريت الكثير من الهدايا لعائلتي لكن الهدية الأغلى للأحبة هي اللقاء بعد طول غياب. اللقاء وحده من يشفي غليل الغياب، صورة شامة تحفر دماغي الآن فقد تخيلتها أنها سترتمي إلي بكل جنون العشق.

الفصل الثامن

على نغمات الموسيقى العربية من الجيل القديم، وهي الموسيقى المفضلة للمعلم زياد، غالبا ما نسمع هذا النوع من الموسيقى عندما يكون المعلم زياد حاضرا بالمقهى ، بينما دافيد لا يتحملها ولا يخفي انزعاجه منها، لكنه لا يستطيع فعل شيء خوفا من المعلم زياد .

أسطورة الأغنية بالنسبة لدافيد هو خوليو إغلسياس وابنه إنريكي يحفظ الكثير من المقاطع ويرددها مع نفسه بصوت مرتفع أثناء العمل.

كان المعلم زياد يتحدث مع بعض الأشخاص الذين يتقاسمون معه نفس الطاولة، لوح إلي بيده يطلبني ، اقتربت منه وقال لي : هل تعرف ما المطلوب منك للسفر في ظل الجائحة؟. قلت له في الحقيقة لا أعرف كل التفاصيل...

نادى على دافيد وطلب منه القيام بما يلزم ، كان دافيد يحس بالعظمة عندما يكلفه المعلم زياد بمهمة ما، خصوصا معنا نحن العمال بالمقهى .

وقبل أن يشرح لي ما ينبغي فعله بخصوص السفر في ظل جائحة كورنا، أخبرني أن ضيوف المعلم زياد مستثمرون عرب يرغبون بالاستثمار في القطاع السياحي هنا بإسبانيا، تساءلت مع نفسي لماذا المستثمر العربي يهجر وطنه؟. آه يا عرب الفقير يحلم بالهجرة لتغيير وضعه، والعقول تهاجر بحثا عن من يحتضنها ويفتح لها آفاق البحث العلمي، والمستثمرون يهاجرون بحثا عن بيئة الاستثمار بما تكفله القوانين للجميع. ماذا بقي في الرقعة العربية غير التطاحن السياسي المفتعل ، وغير التسابق على تقبيل

يد أمريكا المباركة للبقاء في الحكم .

الفساد ينخر الجسم العربي من الألف إلى الياء، وفرص الاستثمار محتكرة لعصابات تحكمت في المال والسلطة والإعلام، جماعة الضغط شكلت لنفسها قواعد وقوانين من الصعب اختراقها أو الاقتراب منها. تملك مقص رسم العوالم حسب شاكلتها في الاقتصاد كما في السياسة . في الإعلام كما في مختلف القضايا المصيرية للأمة .

أخرجني دافيد من هذا التفكير المزعج بقوله : عليك القيام بفحص عاجل وتسلم شهادة طبية عبارة عن اختبار للدم PCR تثبت عدم إصابتك بفيروس كورنا ويجب أن لا تتعدى مدتها 48 ساعة عن موعد السفر. هذا هو المهم أما الباقي كلها أمور شكلية كالكمامة الصحية والتباعد الاجتماعي وغيره من البروتوكولات المعمول بها في كل مكان .

كنت أسابق الزمن وأسرع الخطو لفعل ما يطلب مني على عجل، فلم أعد أطيق الصبر على البعد خصوصا وجداني يحترق شوقا لمعانقة أمي وأبي ومراد وضحى. أما شامة انقبض قلبي منذ اليوم الذي أخبرتها بعودتي إلى وطني ولم أرى في سماء مدريد غير اللون الأبيض الذي تلفه الثلوج على كل الشوارع والأزقة وينفتح قلبي انشراحا ليوم زفافنا المنتظر.

رجعت إلى المقهى وكان المعلم زياد ما يزال مع الضيوف في نقاش معهم، ولم أتجرأ اقتحام نقاشهم ولكن دافيد أخبره بأن المهمة انتهت. في هذه اللحظة دخلت زوجة المعلم زياد وكأنها كانت تترقب خطواتنا أشار إليها المعلم زياد بيده وهو يلوح نحونا فهمنا من ذلك أنه يطلبها بأن

تكمل المهمة.

جلسنا نحن الثلاثة في طاولة بعيدة عن المعلم زياد وكأنها لا ترغب التدخل في شؤونه مع ضيوفه. سألها دافيد إن كانت ترغب في شرب شيء، أجابت بالنفي لأنها ستذهب في الحال .

انصرفت مسرعة لترتيب أمور السفر، وطلبت مني الاستعداد. كان صلاح يتنقل بين الطاولات يتقفى طلبات الزبناء اقترب مني مبتسما وقال : تمتع بوقتك مع عائلتك، ما تستحق هذه الحياة الركض على الخواء، لقد تعبنا كثيرا وركضنا كثيرا ... استرح قليلا مع من تحب، وبدأت علامات الحسرة ترتسم على وجهه، فهمت من خلالها أن الشوق يحرق قلبه ويحن إلى زيارة أمه، فقد بلغه أنها مريضة جدا ولا حيلة له. ربتت على كتفه وقلت اللّه ستنفرج ان شاء اللّه، قريبا سيأتيك الفرج من حيث لا تدري، وستعانق أمك ، قاطعني شبه يائس وقال : مادامت الدمية تصنع التفاهة على شاكلتها وينقل البلد من كارثة إلى أخرى وانخرط الجميع في التصفيق والتطبيل ، رجال الدين يطوعون الآيات القرآنية بدون حياء بحثا عن سخافة في جماجمهم وينسبونها للّه، والإعلام تحول إلى رسم السفاهة، العالم يضحك علينا وأنت تضحك علي الآن عندما تقول أن معانقة أمي قريبة. قلت له أستغر اللّه ولكن اللّه غالب أمره وسيفرج كربك مهما كان ظلم الطغاة.

فهمت الآن حجم الظلم المنتشر في جغرافية الوجود والساسة يشربون نخب توزيع الأدوار ، أن تفرق بين إنسان وأمه المريضة يعلم اللّه

حالها وكيف يحترق قلبها على فراق ولدها وذنبهم الوحيد هو الحلم بالعدالة الاجتماعية، والكرامة الإنسانية التي يتغنى بها الغرب في الهواء ولا وجود لآثارها على الواقع .

ونحن ندردش أنا وصلاح، جاءت زوجة المعلم زياد غاضبة وقالت بقلق كبير : كل الطرق مقفلة ، إنه العبث، لماذا الحدود بين المغرب وإسبانيا مسدودة؟. وحدها جنوى الايطالية و سيت الفرنسية من يسمح فيهما بالولوج إلى المغرب يقول المثل المغربي : أين هي أذنيك ... أشارت بيدها وهي غاضبة إلى أذنها المعاكسة. بينما أنا وقفت صامتا أتابع كلامها وخمنت أنها ستلغي قرار السفر أو تتراجع عنه على الاقل الآن .

اقترب منا المعلم زياد بعدما سمع حديث زوجته التي كانت تتحدث بصوت مرتفع ومعه شخص لم أتعرف عليه ولكن يبدوا من حديثه أحد أقربائه. وأخبرنا أنه من الصعب السفر على متن الباخرة في هذه الظروف المعقدة والغامضة. وقال لهم حساباتهم السياسية والمهاجر يدفع الثمن. إذا كان هدف السلطات المغربية قتل الحركة النشطة لكل من سبتة ومليلية ، كان عليها التفكير في المهاجرين العالقين هنا بإسبانيا وهي أقرب منطقة العبور للمغرب. وكل تغيير الوجهة مكلف ماديا ولوجستيكيا وهدر للكثير من الوقت. حتى القطار ليس هناك خط مباشر بين مدريد وباريس. بمعنى ضرورة تغيير القطار ببرشلونة. ومن باريس إلى سيت. ثم تبدأ عملية الانتظار فلا توجد إلا رحلة واحدة في الأسبوع من سيت الفرنسية إلى طنجة المغربية. عبر شركة GRANDI NAVI VELOCI

وتستغرق الرحلة 45ساعة .

قالت زوجة المعلم زياد بغضب : ما العمل إذن ؟.

أجابها المعلم زياد : الحل المتبقي هو الطائرة.

قالت غاضبة: لماذا الدولة المغربية تستهتر بالمهاجرين وتتركهم يواجهون المجهول؟. بينما أنا بالرغم المعاناة التي قد يتكبدها المهاجرين اعتبرته قرارا شجاعا إن كان فعلا الهدف هو قتل الحركة بسبتة ومليلية، فلا بد من شيء مؤلم للتخلص من الآلام الموجعة للاقتصاد الوطني فالصدمة لا تعالج إلا بالصدمة. ولكن على السلطات المغربية أن تحمل نفس الشجاعة وتحل مشاكل المهاجرين كما تفعل بلدان المعمور ولا تترك مصيرهم للمبادرات الفردية .

كان المعلم زياد يتفحص مواقع السفر عبر هاتفه ورفع رأسه نحو زوجته وأخبرها بوجود رحلة جوية بين مدريد ومدينة طنجة المغربية على الساعة التاسعة وعشرة دقائق صباحا. ولا تستغرق الرحلة إلا ساعة ونصف تقريبا، لم تتأخر زوجته في الرد بطلبها الحجز على الفور .

ودعتني زوجة المعلم وطلبت مني القيام بالمهمة والتي أجهل تفاصيلها لحد الآن، بينما المعلم زياد قال مازحا أخاف أن تستحلي الجلوس بالمغرب ولا تعود ثانيا لا بد من أخذ شيء ثمين لك لترجع، قلت في نفسي الشيء الثمين في حياتي هم الذين كسرت خاطرهم وتركتهم، هم الذين سببت لهم الحزن والألم طيلة هذه المدة. أحيانا لا نفكر إلا في أنفسنا وتعمى الأبصار عن من حولنا، ولا نفكر في الألم والوجع الذي قد نرتكبه

من سلوك طائش خصوصا الذين يحبوننا بصدق. تذكرت محاولة أبي وكيف كنت صلبا ولم أسمعه، وتذكرت شامة وقصيدتها ومحاولتها وكيف انكسر خاطرها وقلبها دون أن أسمع لها. كم كنت عنيدا وصلب القلب، ربما كان أبي يقول قلبي معك وأنت مثل الحجرة، لا قلب لك وتذكرت الحجرة ولولا الحجرة لما كان الحب، إذن قلبي من حجرة التي انفجرت حبا لشامة، وصلابة الحجرة هي صلابة حبنا الذي ظل صلبا رغم البعد ورغم الهزات ، اختار أن يكون وفيا لصلابة الحجرة في تماسكه وقوته. هو الحب الحقيقي الذي انطلق من أول نظرة خاطفة رسمتها ذاكرتي وبقي منقوشا كما لو نقش على الحجرة نفسها. في طفولتي الكثير من البراءة ولسنا مسؤولين عن طفولتنا بعفويتها ورعونتها. ما يسجل في مسرح الطفولة خارج وعينا فلا نرسم إلا ما يخطه لنا الكبار، لا أحد يتذكر متى تعرف على ذاته، ويبقى السؤال من أنا سؤال لحظي نجيب عنه حسب سياق المرحلة لا يفيد في شيء أن أقول كنت في الماضي، أو كنت أحلم أن أصبح ولكن ... فليس مهما ما كنت ترغب فيه. بل المهم هو أنت الآن من تكون ؟. هذا التحديد الدقيق هو الذي يخلصني من ثقل الماضي ومن الطفولة وطيشها وتهور الشباب. أنا الآن مهاجر وكفى .

وأنا انظر إليه مبتسما قلت له أكيد سأعود وقبل أن ينصرف أخبرني أنه سيأتي عندي للمقهى في الصباح الباكر لأخذي للمطار بسيارته .

هل تكفي الليلة لترتيب الأحداث المتزاحمة في ذاكرتي بشكل عشوائي؟. شريط المعاناة كمهاجر سري ونحن نتجرع مرارة العيش

كالفئران في مزابل أوربا، صورة أوربا الحلم ، شامة وصفاء قلبها وعفويتها الفطرية وبراءتها الطفولية ، عائلتي البسيطة في عيشها ، فيلا وصلاح صديقين بكل معاني الصداقة نختلف في كل شيء ونلتقي في كل شيء. والآن عامل في مقهى وثقة المعلم وزوجته أشياء كثيرة تتداخل في ذاكرتي وتتشابك ككومة خيط تحتاج إلى نساج ماهر لينسج صباحا مختلفا، إنه صباح العودة، وهل الطائر الذي سيحلق بعيدا ينام ؟. هكذا غمرتني الأسئلة وجعلت مني طائر في دروب الغربة يغرد في سماء الفرح بعدما اقترب من العش .

الليلة هادئة وضجيج الأسئلة يرميني من سؤال إلى سؤال، ماذا في الحقيبة؟. ومتى سألتقي شامة؟. وهل يسمح لي أبي بالعودة مرة أخرى ؟. ماذا لو رغبتني شامة هذه المرة، هل سأكون عنيدا وقاسيا وأكسر خاطرها ثانية؟. صلاح وفيلا غارقين في النوم وأنا غارق في الأسئلة، بالكاد خطفني النوم بضع ساعات قليلة قبل أن أستيقظ على صوت جرس الهاتف وكان لزاما على فيلا وصلاح أن يستيقظا معي ويرافقاني على الأقل إلى المقهى .

في المقهى كان المعلم زياد ينتظرنا السابعة صباحا والجو بارد في مدريد، الفطور جاهز على الطاولة ولا شهية لي فقط شهية استقبال نسائم رياح القرية هي من تشق رئتي الآن، وحده فطور أمي ينتظرني.

ودعت صديقين عزيزين بعناقة حارة لكل واحد منهما وركبت سيارة المعلم زياد وانطلقنا في اتجاه المطار كان بالي مشغول جدا بأشياء كثيرة كما الليل انشغل بالي بالأسئلة على طول الطريق وكثير من الأحداث

تتزاحم وقلبي ينقبض أحيانا وينشرح أحايين أخرى .

تقريبا بعد 40 دقيقة فقط كنا على باب المطار إنه مطار مدريد بارا خاس الدولي اندهشت للحجم الكبير من المسافرين الذين يقصدون المطار من كل الاتجاهات، لأول مرة أدخل مثل هذه العوالم اندهشت وتملكني شعور غريب في البداية ولم أصدق نفسي أنه بعد بضع دقائق سأكون في الطائرة. تكفل المعلم زياد بجميع الإجراءات ورافقني إلى أن تأكد بشكل نهائي أنه لا مشكلة للسفر فقد كان خائفا من حدوث مشكلة.

ها هو مطار طنجة ابن بطوطة الدولي ، نسائم رياح الغربة تمتزج برياح الوطن، الحادية عشرة صباحا بالتوقيت المغربي وطابور من المسافرين كل واحد ينتظر دوره، علامات الفرح مرسومة على الكثير وعناق هنا وهناك. عائلات تترقب على أحر من الجمر قدوم أحد أقرباءها بعد سنوات الغياب والغربة. وهو نفس الإحساس والشعور الذي تملكني هذه اللحظة. أخذت سيارة صغيرة للمحطة الطرقية بطنجة، وبعدها إلى القرية. ملأت الفرحة قلوب عائلتي ارتمت إلي أمي واحتضنتني بكل حنان الوجود حتى ظننت أنها لن تتركني أعانق أبي ومراد وضحى. وهي تهلل ابتهاجا وسعادة وكأن شيء ما مفقودا ملكته الآن وأنا أكثرها ابتهاجا وسرورا ولم يكن في فلك الحسبان أنني سأدخل عليهم كل هذا الفرح والابتهاج، نسيت آلامي وأحزاني وتفتت معاناة مهاجر سري على حضن أمي وسقتني اللحظة نسائم الفرح وعطر الحنان وابتهاج العناق.

كانت أسئلة أمي وأبي تشق ضلوعي عن حياتي بالغربة وعن

تفاصيل الهجرة والعمل وغيرها من الأسرار المخبئة في دفاتر الأيام التي رمتني بعيدا عنهم. ولم يكن لي من خيار سوى رسم ابتسامة على الجميع وأقول لهم الحمد لله على كل حال. لأنه من غير المناسب أن أخبرهم بمرارة الحياة والمعاناة التي عشناها كمهاجرين سريين في قبضة المافيا. اليوم هو يوم الفرح، هو يوم لقاء الأحبة وبين الحين والحين أسرق النظر إلى الهاتف وأجيب عن رسائل شامة التي لم تتوقف وتخبرني أنها لم تستطيع الانتظار أكثر .

تحينت الفرصة وتخلصت من عائلتي وتسللت بين شعاب القرية إلى الوادي، العروس الجميلة لا ينبغي أن تنتظر أكثر فقد أحرقها الشوق، وما إن اقتربت منها حتى ارتمت إلي وعانقتني كما تعانق الأم ولدها، شامة بعفويتها الطفولية ارتمت إلى أحضاني وأمسكت يدي بكل حرارة إنه الشوق الذي يسري في كياني، والحب الذي أعمى كل شيء أمامها ولا صورة إلا صورة مغترب رسمت لوحة اللقاء على شاكلتها. جلسنا على صخرة الوادي وقالت لم أكن أتوقع أن تفعلها، أجبتها مبتسما ولكني فعلتها. ضربت بيدها على كتفي وقالت كم أنت عنيد ولكنك عدت إلي والحمد لله أنك عدت سالما.

انتبهت إلى الطائر الذي هجر المكان وإلى مياه النهر التي جفت، وقلت لها الطائر الذي كان يطرب المكان مغردا هاجر حزنا علينا، وها هو النهر جف من الماء، ولكن قلبي مازال يسيل ويفيض حبا لك. وهي تمسك يدي وتطير من الفرح يكفيني تغريدك فأنت طائري المغرد بالحب والعشق

وأنت نهر الحب الذي أسبح فيه بخيالي وأغتسل من قطرات عطره وأشم نسائم صباحاته .كان الوقت قد تأخر وعليها الرجوع إلى المنزل وقبل أن تنصرف أخبرتها أن يوم خطبتنا قريب جدا.

يتبـــع ...

عتبة الفناء : الجزء الثاني

الفهرس

الفصل الأول 5
الفصل الثاني 33
الفصـــل الثالـث 55
الفصل الرابع 65
الفصل الخامس 85
الفصل السادس 141
الفصل السابع 167
الفصل الثامن 185